القسم الثاني

ابــن خلــدون

نسبه ومولده ومختصر عن حياته

ابـن خـلـدون

نسبه ومولده ومختصر عن حياته

هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون[1]، أو هو بصورة مختصرة كما يذكر ذلك في المقدمة: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي[2] يرجع نسبه إلى عرب اليمن من حضرموت وبالتحديد إلى وائل بن حجر[3]، وهو يذكر هذا النسب بتوسع وتفصيل ويعتز به ويحاول أن يذكر الأدلة التي ترفع من شأنه، ومن ذلك ذكره لوفادة جده وائل بن حجر على رسول الله ﷺ الذي قال: «**اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة**»[4].

هذا ما يذكره ابن خلدون عن نفسه في سيرته الذاتية التي كتبها، أما الآخرون فإنهم يسبغون عليه أوصافاً متعددة بحسب ما كان يثير انتباههم في شخصيته، إما إبرازاً لأصل أو انتماء عرقياً أو مذهبياً أو إيماء إلى منصب تقلده وهم يقولون عنه: (قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ

---

(1) التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً/ ابن خلدون/ دار الكتاب اللبناني/ 1979م/ ص3.

(2) مقدمة ابن خلدون/ ج1.

(3) التعريف/ ص4.

(4) المصدر السابق/ ص4.

الإمام أبي عبد الله محمد بن خلدون المالكي. . الوزير الرئيس الحاجب الصدر الكبير الفقيه الجليل علامة الأمة إمام الأئمة)[1].

وعلى الرغم من اعتزاز ابن خلدون بنسبه العربي وإثبات الآخرين لهذا الانتماء وتأكيدهم إياه، إلا أننا نجد أن الدكتور طه حسين يشكك في نسب ابن خلدون هذا اعتماداً على عدم استعمال العرب للكتابة، أو تشكيكاً في كتب الأنساب، ولذلك فهو يرى أن الأسرة الخلدونية لم تعرف إلا في أواسط القرن الثالث في إشبيلية، وعلى أية حال فإن الباحث المنصف لا يسلم برأي الدكتور طه حسين، لأنه لا يستند على دليل علمي صحيح، ولأن ابن خلدون نفسه قد سطر هذا النسب بتفصيل في سيرته الذاتية، ولم يبد من خلال ذلك أي تشكيك في هذا النسب، ولم يشك في ذلك أي من خصومه أو معارضيه، ومما يزيد في رفض هذا الرأي هو ذلك الموقف المعادي الذي يتخذه الدكتور طه حسين من ابن خلدون، والذي يبدو واضحاً في مواضع عدة من كتابه، مما يجعله في دائرة البحث البعيدة عن الموضوعية[2].

إن ما يهمنا أخيراً أن ابن خلدون كان الاسم الذي اشتهر به صاحب المقدمة، حتى إنه أصبح إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه، على الرغم من وجود من تسمى بهذا الاسم من العلماء الآخرين من ذوي قرابة عبد الرحمن بن خلدون، ومن هؤلاء أخوه الأصغر يحيى بن خلدون صاحب كتاب (بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد) ومنهم أيضاً عمر بن خلدون الذي اشتهر في العلوم الرياضية والفلك، والذي توفي قبل مؤلفنا بما يقرب من ثلاثة قرون[3]. وقد خلط بعض الباحثين بين صاحب المقدمة وبين هذين العالمين، فنسب إلى عبد الرحمن ما ليحيى أو لعمر وكان ذلك قديماً، أما في العصر

(1) ساطع الحصري/ دراسات عن مقدمة ابن خلدون/ مكتبة الخانجي/ ط3/ 1967 ص42/ 43.
(2) طه حسين/ فلسفة ابن خلدون الاجتماعية/ دار الكتاب اللبناني ط2/ 1967/ ص14.
(3) ساطع الحصري/ دراسات عن مقدمة ابن خلدون/ ص43.

الحديث الذي اهتم فيه الباحثون عرباً وغربيين بالفكر الخلدوني فإن الاسم قد خص به عبد الرحمن دون غيره، ولم يعد هناك ما يؤدي إلى هذا الخلط نتيجة الشهرة الكبيرة التي حظي بها الفكر الخلدوني في مباحثه المختلفة.

ولد ابن خلدون في تونس في غرة رمضان سنة 732هـ الموافق 27 مايو 1332م. فهو من أعيان القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، انحدر من أسرة عاشت في إشبيلية وكانت ذات ماض عريق في المشاركة في الحياة العامة والتأثير فيها كما سنعرف بعد ذلك، ويقسّم الباحثون تاريخ حياة ابن خلدون إلى مراحل رئيسة أربع هي كالتالي:

1 ـ مرحلة النشأة والتلمذة من 732 إلى 753هـ.

2 ـ مرحلة المشاركة في الحياة السياسية بالجزائر والمغرب والأندلس وهي من 754 إلى 776هـ.

3 ـ مرحلة العزلة والتأليف في قلعة ابن سلامة بالجزائر وهي من 776 إلى 780.

4 ـ مرحلة التدريس والقضاء واستكمال التأليف وهي في الفترة من 780 إلى 808[1].

ولعل هذا التقسيم يرصد حياة ابن خلدون في عموميتها نشأة وتلمذة وعملاً علمياً وسياسياً، وهذا ما جرى عليه الكثير من البحاث الذين رصدوا الحياة الخلدونية سنة سنة وحادثة حادثة، وعلى العكس من ذلك نجد الكتاب الغربيين يهتمون فقط بالجانب العلمي في شخصية ابن خلدون فيقسمون التاريخ الخلدوني إلى فترتين رئيستين هما:

1 ـ مرحلة الاهتمام بالعلوم وهي تختلط بين مقامه في تونس ورحيله إلى القاهرة.

---

(1) محمد عابد الجابري/ العصبية والدولة/ دار النشر المغربية/ ط4 1984/ ص49.

2 ـ مرحلة الانصراف إلى العلوم الدينية والتصوف والإعراض عن الفلسفة والعلوم العقلية، وهي تتأكد في مقامه في القاهرة[1].

والباحث يميل إلى التقسيم الأول الذي يكشف عن كثير من الجوانب المؤثرة في شخصية ابن خلدون، التي تعتبر ذات تأثير في القول بالمرحلتين اللتين اهتم بهما الأوروبيون، فبدون معرفة تفاصيل الحياة الشخصية؛ لا يمكن معرفة المراحل العلمية لهذه الشخصية ولذا فإن اهتمام البحاث العرب بهذه المراحل الأربع له ما يبرره.

في تونس إذن كان مولد هذه العبقرية، وتحديداً في شارع تربة الباي، أحد الشوارع الرئيسة في المدينة القديمة، ومن أجل ذلك كان البعض يلقبه بالتونسي، ومن أجل ذلك أيضاً يفتخر التونسيون بأن بلادهم كانت منبت الكثير من العلماء العظام وفي مقدمتهم ابن خلدون.

يحدثنا ابن خلدون في سيرته الذاتية عن أنه عاش في كنف والديه، وأنه حفظ القرآن الكريم برواياته السبع، ودرس على الكثير من العلماء العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وتوحيد، والعلوم اللغوية من نحو وصرف وبلاغة وأدب، ودرس إلى جانب ذلك علوم المنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية[2]. وظل ابن خلدون على هذا الحال طالباً مجداً حريصاً على طلب الكثير من العلوم والمعارف، دفعته إليها رغبة شخصية في التحصيل والتعلم، ورعاية واعية من أب له في مجال العلم نصيب وافر، إلى أن أصيبت البلاد، بنكبة طبيعية تمثلت في ذلك الطاعون الذي دمر البلاد وقتل الكثير من العلماء والحفاظ، ومنهم والدا ابن خلدون ومعظم مشايخه وهجرة البقية من المشايخ إلى أماكن متفرقة، وكان لهذا الحدث أثر كبير في شخصيته؛ إذ كان بمنزلة انقطاع حياته الدراسية، مما أدى به إلى دخول معترك

---

(1) المرجع السابق نفسه/ ص49.

(2) التعريف/ ص17 وما بعدها.

الحياة السياسية التي كانت المرحلة الثانية في حياته، ويعبر ابن خلدون عن هذه النكبة المؤثرة بقوله: (لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضل، متنقلاً بين دور العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف الذي ذهب بالأعيان والصدور وجميع المشيخة، وهلك أبواي رحمهم الله)[1].

كان هذا الحدث إذن نقطة تحول كبيرة في حياة ابن خلدون الذي لم يعد يلقى بغيته في التعلم، نتيجة هجرة العلماء إلى المغرب، فكان أن تاقت نفسه إلى دخول معترك المجال السياسي، آخذاً بنفس الطريق الذي سار فيها أجداده الذين كان لهم إسهام فعال في الحياة السياسية في الأندلس، واستطاع عبد الرحمن أن يبدأ حياته الجديدة من خلال وظيفة (كتابة العلامة) لدي ابن تافراكين[2] وهي: وضع الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم[3]، وكانت هذه الوظيفة فاتحة عهده بالصراعات السياسية وما تجره من آلام ومتاعب، بدأ ابن خلدون تجربتها حين ذاق طعم الهزيمة مع جند ابن تافراكين على يد أمير قسطنطينة أبي يحيى الحفصي.

وبعد هذه التجربة السياسية الأولى حطت الأقدار بابن خلدون في تلمسان عند السلطان أبي عنان[4]، الذي أكرمه وعينه عضواً في مجلسه العلمي بفاس متيحاً له فرصة ذهبية في معاودة اللقاء بأهل العلم الذين تاقت

---

(1) التعريف/ ص57.

(2) ابن تافراكين: شيخ الموحدين: أبي محمد ابن تافراكين المستبد بحجابة السلطان بتونس.

(3) التعريف ص57.

(4) السلطان أبو عنان: أبو عنان المتوكل على الله ولد سنة 729 تولى الملك سنة 752، خاض غمار حروب كثيرة وأخمد فتناً عديدة، نعم المسلمون في عهده بشيء من السلم، مات مخنوقاً من طرف وزيره الحسن بن عمر الفودودي سنة 759. انظر: إبراهيم حركات (المغرب عبر التاريخ) دار الرشاد الحديثة/ الدار البيضاء. ص56.

نفسه إلى الاتصال بهم وأخذ مختلف أنواع المعرفة عنهم، وكان أن ازدادت حصيلته العلمية في مقامه هذا، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن فاس كانت تحتضن أغنى المكتبات الإسلامية الممتلئة بشتى أنواع الكتب، ويصف ابن خلدون هذه الفترة المهمة بقوله:

(فقدمت عليه سنة خمس وخمسين ونظمني في أهل مجلسه العلمي، وألزمني شهود، الصلوات معه، ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كره مني، إذْ كنت لم أعهد مثله لسلفي وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة من الإفادة منهم على البغية)[1]، ويبدو أنه لم يكن راضياً بهذه الوظيفة التي أسندت إليه من طرف السلطان أبي عنان، وإنما حمله إلى الرضا بها ما كان يلقاه من فرصة في لقاء أهل العلم والمعرفة، ويظهر هذا بوضوح من قوله (على كره مني)، وقد دفعه هذا الكره إلى البحث عن وسيلة للدخول في مغامرة سياسية قد تقربه من أحد المذاهب الكبيرة التي كانت نفسه تتوق إليها، وقد وجد فرصته في التآمر مع صاحب بجاية عبد الله محمد الحفصي[2]، الذي كان من عشيرة يربطها بأسرة ابن خلدون ود قديم، وكانت نتيجة هذه المغامرة دخوله وصاحبه الأمير الحفصي المعتقل، حيث أمضى به ما يقرب من سنتين لم يترك فرصة إلا وتضرع إلى أبي عنان للإفراج عنه، ولكن محاولاته هذه أخفقت، إلى أن خاطبه بقصيدة بلغت ما يقرب من مائتي بيت نذكر منها بعض الأبيات التي تقول:

على أي حال لليالي أعاتب ... وأي صروف للزمان أغالب

كفى حزناً أني على القرب نازح ... وأني على دعوة شهودي غائب

---

(1) التعريف/ ص60/ 61.

(2) أبو عبد الله الحفصي: أمير بجاية خلعه السلطان أبو عنان عن إمارتها وأخذه أسيراً إلى فاس، وصحبه في سجنه ابن خلدون، ثم استرد ملكه سنة 765هـ وعين ابن خلدون في منصب الحجابة مكافأة له على معاونته. انظر: المقدمة/ ج1 ص68.

وأني على حكم الحوادث نازل تسالمني طوراً وطوراً تحارب[1]

ويبدو أن هذه التجربة التآمرية، وما أعقبها من محنة الاعتقال، قد أكسبت ابن خلدون خبرة جديدة في مجال العمل السياسي قوامها: الغاية تبرر الوسيلة، إذ دفعته إلى معاودة التآمر مرات متعددة حتى وصل بمغامراته هذه إلى تولي وظيفة كتابة السر عند السلطان أبي سليم بن أبي الحسن[2]، الذي ساعده ابن خلدون في الوصول إلى السلطة، فكان أن كافأه بهذه الوظيفة ثم بمنصب المظالم الذي ظل فيه إلى أن لعبت به خطط تآمر أعدائه، وأقضت عليه مضجعه، ولكنه يتغلب على ذلك مستعيناً بموهبته وذكائه وصداقاته التي فسحت له المجال لمغادرة المغرب في طريقه إلى الأندلس، منهياً بذلك فترة مهمة من فترات حياته التي حفلت بشتى أنواع التجارب الحلوة والمرة، والتي ليست بغريبة عن طبيعة العمل السياسي.

وفي فترة ابن خلدون الأندلسية هذه يبدو أنه قد حظي بحفاوة وترحيب كبيرين، خاصة من صديقه ابن الخطيب[3] الذي لقيه بقصيدة قال فيها:

حللت حلول الغيث بالبلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المهدأ والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطة وتقريري المعلوم ضرب من الجهل[4]

---

(1) التعريف، ص69.

(2) هو أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن الملقب بالمستعين تولى الإمارة في الفترة من 760/ 762 (1358/ 1360)، ويبدو أنه أخضع أماكن كثيرة في الأندلس والمغرب لسيطرته. انظر ترجمته في إبراهيم حركات (المغرب عبر التاريخ) ص58.

(3) محمد بن عبد الله بن سعيد السماني اللوشي الأصل الغرناطي الأندلسي أبو عبد الله الشهير بلسان الدين بن الخطيب، ولد بغرناطة سنة 1313 وتولى الوزارة سنة 744، قتل خنقاً في سجنه سنة 1374، كان مؤرخاً وأديباً خلف ما يقرب من ستين مؤلفاً أشهرها كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة/ اللحمة البدرية في الدولة النصرية/ نفاضة الجراب. إلخ، انظر: الزركلي/ (الأعلام) ج7، ص112.

(4) التعريف/ ص86.

كما حظي بترحيب كبير من سلطان غرناطة محمد بن يوسف بن إسماعيل بن الأحمر[1] الذي خلع عليه كل ألوان الكرم والود، والذي يصفه بقوله: (وقد اهتز السلطان لقدومي، وهيأ لي المنزل من قصوره بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائي تحفياً وبراً ومجازاة بالحسنى، ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك، وخلع علي وانصرفت)[2].

وهكذا طاب المقام له في الأندلس، وفتح له المجال في ممارسته أشكالاً جديدة من مجالات العمل السياسي، ومنها السفارة لدى ملك قشتالة[3]، التي صادف فيها وفي غيرها من الأعمال نجاحاً ملحوظاً أدى به في نهاية الأمر أن يقع فريسة الحسد والغيرة من قبل من لهم الكلمة العليا في الدولة، وخاصة ابن الخطيب، وهنا نرى ابن خلدون يركن إلى السلامة والبعد عن التصادم على غير عادته في المغرب، ويفضل الرحيل من الأندلس في اتجاه بجاية[4]، منهياً بذلك فترة أخرى من فترات حياته السياسية التي كانت حافلة بعدم الاستقرار والرحيل من مكان إلى آخر، مما زاد من دربته وخبرته وأضفى على حياته طابعاً لا يمكن أن يغفل حين الحكم على شخصيته.

بعد مغادرته الأندلس إلى المغرب قضى ابن خلدون ما يقرب من عشر سنين حافلة بشتى أنواع النشاط السياسي، أظهر فيها خبرة سياسية محنكة لا

---

(1) محمد بن يوسف بن إسماعيل الأحمر: حكم غرناطة على فترتين: الأولى ما بين 755/ 760 (1354/ 1359) والثانية 763/ 793 (1362/ 1391) وزر له ابن الخطيب وابن زمرك. انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2 ص13.

(2) التعريف/ ص88.

(3) قشتالة: مملكة نصرانية في الأندلس تعتبر أكبر الممالك الإسبانية رقعة وأوفرها مواردا، كان أول ملوكها سانشو بن القيصر الفرنسو ريموندس المتوفى سنة 1157م، الذي قسمت مملكته بعد وفاته بين ولديه فكانت قشتالة من نصيب سانشو. انظر: محمد عنان (عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس) القاهرة/ ط1 القسم الثاني ص583.

(4) بجاية: مرفأ بشرق الجزائر، كانت عاصمة بني حماد، لعبت دوراً مهماً في تاريخ الجزائر.

تحكمها معايير ثابتة، وإنما تسيرها المصالح والأهواء مرة مع الأمير وتارة ضده، ومرة في النعيم وأخرى في الشقاء والمطاردة. وهكذا مرت هذه الفترة الحرجة من حياته (من منتصف 766 إلى منتصف 776 منها نحو سنة واحدة قضاها في بجاية في منصب الحجابة لأبي عبد الله محمد الحفصي أولاً، ثم لابن عمه أبي العباس من بعده ثانياً، وهي السنة الوحيدة التي قضاها من هذه المدة في وظائف الدولة في الدسائس والمغامرات لحساب أبي حمو سلطان تلمسان[1]، ضد أبي العباس سلطان بجاية أولاً، ثم لحساب أبي فارس بعيداً عن وظائف الدولة، وقد قضاها في كنف الوزير ابن غازي[2]، ما عدا بضعة أشهر في آخرهما قضاهما في عهد السلطان أبي العباس أحمد)[3].

وحين لم يستقر له المقام في المغرب طلب الرحيل ثانية إلى الأندلس، ولكن دوره في المغامرات السياسية السابقة كان يلاحقه وينغص حياته، فما كان من أحد الأمراء إلا أن طلب من أمير غرناطة إرجاعه أو إبعاده على الأقل، فكان الخيار الذي ألقى بابن خلدون في أحضان عدوه القديم: أبي حمو الذي وصل إليه بعد وساطات متعددة، ولكن الحال لم يرق له بعد تكليفه بمهمة سياسية جديدة، فخرج متظاهراً بأدائها ولكنه ما لبث أن انزوى في قلعة ابن سلامة[4] من بلاد بني توجين بالجزائر، حيث قرر هناك قفل باب العمل السياسي الذي قضى

---

(1) موسى بن يوسف أبي يعقوب أو حمو، ولد في غرناطة سنة 723/ 1323م، بويع أميراً على تلمسان سنة 760 وتولى ابن خلدون كتابة الإنشاء في دولته، صنف أبو حمو كتاباً سماه واسطة السلوك في سياسة الملوك، قتل في معركة مع جيش يقوده ابنه سنة 791هـ الموافق 1389م. انظر: الزركلي الأعلام/ ج8 ص287.

(2) ابن غازي: هو أبو بكر بن غازي بن الكاس وزير السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن المريني. انظر: شهاب الدين التلمساني/ أزهار الرياض/ ج2/ تحقيق السقا وآخرين/ القاهرة ص/ 30.

(3) د. علي عبد الواحد وافي (عبقريات ابن خلدون)، 1983 دار عالم الكتب ص62.

(4) قلعة ابن سلامة: تسمى كذلك قلعة (تاوغزوت) Taoughzout تقع في مقاطعة وهران بالجزائر، وتنسب إلى سلامة بن نصر بن سلطان رئيس بني يدللتين من بطون توجين بالجزائر الذي اختط القلعة وسكن بها فنسب إليه. انظر: المقدمة/ ج1/ ص77.

فيه زهاء ربع قرن اكتسب فيه الكثير من الخبرات الحياتية على مختلف الأصعدة، مما كان له أكبر الأثر في الكثير من آرائه التي احتواها مؤلفه العظيم (كتاب العبر)، وفي هذه القلعة بدأ رحلته الجديدة في طريق التأمل والنظر والبحث المعمق، في أسرار التاريخ والحياة، وكان أن توصل فيها إلى كتابة مؤلفه الشهير (كتاب العبر) بمقدمته العظيمة التي احتوت الكثير من البحوث الاجتماعية والتاريخية التي لا زالت مثار جدل ونقاش علمي إلى يومنا هذا، ويصف ابن خلدون هذه الفترة بقوله: (وأنزلوني بأهلي في قلعة ابن سلامة من بلاد بني توجين التي صارت لهم بإقطاع السلطان، فأقمت بها أربعة أعوام متخلياً عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت في زبدتها وتألفت نتائجها وكانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس)[1].

والفيئة إلى تونس كانت ـ كما يذكر ابن خلدون ـ تكملة لمشروعه العلمي الكبير الذي عكف عليه في قلعة ابن سلامة، حيث يذكر أنه ألفه من خلال الرجوع إلى المصادر التي لا تتوافر عنده في ذلك المكان، وهنا قصد إلى تونس التي قضى فيها أربع سنوات أنهى فيها ذلك المؤلف العظيم، وأهداه إلى السلطان أبي العباس سلطان تونس، وعرفت هذه النسخة المهداة له بالنسخة التونسية التي يقول عنها ابن خلدون: (فأكملت منه أخبار البربر وزناته، وكتبنا من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل إلي منها نسخة رفعتها إلى خزانته)[2]، كما يقول فيه شعراً حين إهدائه إلى السلطان:

وإليك من سير الزمان وأهله ... عبراً يدين بفضلها من يعدل

صحفاً تترجم عن أحاديث الألى ... عبروا فتجمل عنهم وتفصل

(1) التعريف ص245/ 246.

(2) التعريف ص250.

تبدي التبابع والعمالق سرها وثمود قبلهم وعاد الأول
والقائمون بملة الإسلام من مضر وبربرهم إذا ما حصلوا
لخصت كتب الأولين لجمعها وأتيت أولها بما قد أغفلوا[1]

بعد ذلك تأتي المرحلة الأخيرة من حياته، وهي ما عرفت عند الباحثين بمرحلة الانقطاع إلى التدريس والقضاء وهجر العمل السياسي كلية، وقد بدأها باستقراره في مصر مدرساً في الجامع الأزهر، حيث أقبل عليه طلاب المعرفة، وأذاعوا شهرته حتى وصلت إلى السلطان الذي أحاطه برعايته وعطفه، ولكن ابن خلدون يصاب بنكبة جديدة تمثلت في غرق السفينة التي كان ينتظر أن تقل له زوجته وأولاده الذين هلكوا جميعاً، مما أثر في نفسية هذا العالم الجليل وأصابها بحزن عميق، وفي وصف هذه المصيبة يقول: (فكثر الشغب علي من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفينة، فأصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد واعتزمت على الخروج من المنصب)[2]. وكانت هذه الحادثة بمنزلة الهزة العنيفة الثانية التي تعرض لها ابن خلدون في شيخوخته بعد أن كان تعرض لمثلها في شبابه، حين أفقده الطاعون والديه، وكانت لهذه الحادثة ـ كما يقول الباحثون ـ تأثيرات عظيمة في نفسيته، حيث أصبح يعاني بسببها فراغ الأهل والولد، مما جعله يأمل في أن يعفى من منصب القضاء ويتفرغ للدرس والتعليم، وكان له ما أراد حين أعفاه السلطان من منصب القضاء، وفي ذلك يقول: (وعن قريب تداركني العطف الرباني، وشملتني نعمة السلطان أيده الله في النظرة بعين الرحمة وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها، ولا عرفت كما زعموا ـ مصطلحها ـ فردها إليَّ صاحبها

(1) التعريف ص256.
(2) التعريف ص279.

الأول وأنشطني من عقالها، فانطلقت حميد الأثر مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء، تلحظني العيون بالرحمة، وتتناجى الآمال بالعودة، ورتعت فيما كنت راتعاً فيه من قبل من مرعى نعمته، وظل رضاه وعنايته، قانعاً بالعافية التي سألها رسول الله ﷺ من ربه، عاكفاً على تدريس علم، أو قراءة كتاب أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف، مؤملاً من الله قطع صبابة العمر في العبادة ومحو عوائق السعادة بفضل الله ونعمته)[1].

ولعل النبرة التي يتحدث بها في هذه الفقرة تدل على أنه قد تألم كثيراً بسبب المصائب الاجتماعية والسياسية التي حلت به، ولذلك فهو يدعو الله أن يمن عليه بالراحة في كنف العلم وما يتعلق به من تأليف وتدريس، ويبدو أن مراده في التخلص من المشاكل لم يتحقق، إذ سرعان ما كلف بالتدريس ثم نُحّي عنه، ثم كلف بمنصب القضاء ثم نُحي عنه وهكذا دواليك، وكانت وراء تنحيته من هذه المناصب دسائس ومؤامرات من بعض الذين كانوا يغارون من سعة علمه وقوة شخصيته، كما أن أمله في البعد عن الصراعات السياسية والفتن والحروب لم يتحقق، إذ سرعان ما طلب إليه الالتحاق بالجيش الذي لاقى جيش تيمورلنك[2]، وهناك تتاح له فرصة الدخول في مغامرة جديدة تتوق نفسه معها إلى الحظوة برضا وعطف تيمورلنك، الذي أكرم وفادته وقدر منزلته، وأحاطه بالرعاية والاحترام، إلى أن ترك دمشق عائداً إلى القاهرة، لتولي منصب قاضي قضاة المالكية في فترات متعددة، كان يبعده عنه أحياناً خصومات ودسائس منافسيه ولكنه ما يلبث أن يعود إليه مستنجداً في ذلك لذكائه وفطنته وقوة شخصيته[3].

وهكذا في مثل هذه الأجواء ـ ما بين تدريس تارة، وقضاء تارة أخرى،

(1) التعريف ص280.
(2) التعريف ص280.
(3) د. علي وافي/ عبقريات ابن خلدون/ ص96.

وما بين منافسة وصراع تارة وراحة واستقرار تارة أخرى ـ قضى ابن خلدون بقية أيام حياته في القاهرة عاكفاً على تنقيح كتبه وتدارك ما فاته من بعض الأمور في موضوعاتها، إلى أن أدركته المنية يوم السادس والعشرين من رمضان سنة 808هـ الموافق 16 مارس سنة 1406م، عن ست وسبعين سنة، ودون أن يترك ما يذكر سوى مؤلفاته التي سجلته في عداد الأحياء إلى يومنا هذا، لما تحمله من جدة وابتكار كلما تجدد البحث فيها، وقد دفن ابن خلدون بالقاهرة في مقابر الصوفية التي يدفن فيها كبار العلماء ووجهاء القوم، وكان ذلك اعترافاً من معاصريه بعظيم قدره وجلال منزلته، عليه رحمة الله.

مكونات شخصيته

إن شخصية كهذه ـ خلفت وراءها نظريات مبتكرة وآراء متطورة اتسمت بالجدة والإبداع، ولم يزدها البحث على الرغم من كثرته إلا لمعاناً وبريقاً ـ لخليقة بأن تحمل في طياتها مكونات متعددة إليها يرجع الفضل في تكوين هذه العقلية الفذة التي يفتخر الجنس العربي بانتسابها إليه، وهذه المؤثرات أو المكونات لا بد أن تبحث في كل جانب من جوانب حياته لنستطيع بعد ذلك التعرف على سر الإبداع عند هذا العلامة، ولكي نتتبع هذه المؤثرات علينا أن نسير معها واحدة تلو الأخرى وفق تسلسلها المنطقي، وهي كما نتصور كالتالي:

أ ـ عصره:

كان عصر ابن خلدون يمثل مرحلة انتقالية مهمة في تاريخ الحضارات البشرية على الصعيدين العربي والعالمي، ذلك أن هذا العصر قد شهد تمزق وتفتت الكيان العربي وانقسامه إلى دويلات صغيرة مغربية وشرقية، وفي المقابل كان هناك تحول في العالم الغربي من حالة الضعف إلى حالة الانبعاث الحضاري المؤدي إلى التماسك والقوة.

فعلى الصعيد العربي والإسلامي كان عصره شاهداً على اندثار الحضارة

العربية الإسلامية في الأندلس التي لم تبق من دويلاتها المتساقطة إلا دولة بني الأحمر[1]، التي بقيت بين الاستعانة بأمراء المغرب أو طلب الحماية من أمراء قشتالة، وكانت فترة ابن خلدون شاهداً أيضاً على قيام ثلاث إمارات في منطقة المغرب جمع بينها الصراع القوي على السلطة، والتآمر على الإيقاع كل بالآخر من أجل الظفر بالغلبة على الآخرين.

وفي العالم الإسلامي كان عصر ابن خلدون شاهداً على قيام بعض الحركات التي كانت تستهدف إعادة اللحمة الكاملة لهذا العالم ولو كان ذلك عن طريق القوة فكانت فتوحات تيمورلنك التي وصلت إلى منطقة الشام، وكانت الفتوحات العثمانية التي توغلت إلى أجزاء مهمة من العالم الغربي، إن عصر ابن خلدون كان في عمومه عصر تقلبات وفتن سياسية تمثلت في انعدام الاستقرار السياسي الذي هو شرط من شروط إقامة المجتمع المتحضر، ولذلك فإن هذه الفتن والانقلابات السياسية التي كانت تتمثل في سقوط أمير وانتصار آخر وعلو شأن أسرة واندثار أُخرى ظلت سبباً رئيساً في قيادة العالم الإسلامي إلى مدارج الانحدار الحضاري، والتخلف الفكري والثقافي نتيجة عدم الاطمئنان والأمن على المال والولد والسكن، لقد كان هذا العصر إذن عصر ترد حضاري وعصر تغيرات اجتماعية وتاريخية وسياسية، وعصر فوضى واضرابات داخلية، حتى إن جاك بيرك يصفه بأنه: من أسوأ العصور التي عرفتها حضارات البحر الأبيض المتوسط[2].

ولا شك في أن ابن خلدون كان يمثل العدسة الراصدة لكل مظاهر الحياة في هذا العصر، حيث شارك فيها بقوة وعرفها من داخلها، وكان أحد

---

(1) دولة بني الأحمر: أو كما تسمى أحياناً بالدولة النصرية، أسسها أبو عبد الله محمد بن يوسف الملقب بالغالب بالله، بدأت سنة 635 وانتهت سنة 897 حين هزمت هذه الدولة وسلمت مفاتيح عاصمتها غرناطة إلى ملوك الإسبان. انظر: أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن/ الغرناطي/ تحق. د. رضوان الداية/ مؤسسة الرسالة/ ص77.

(2) محمد عابد الجابري/ العصبية والدولة/ ص 21.

المكتوين بنيرانها حين تلتهب عليه وعلى أصدقائه من الأمراء، وكان أيضاً أحد المتنعمين بملذاتها حين تروق له الأمور في صحبة من ينتصر من أصدقائه، ومن هنا كانت لتآليفه وآرائه في هذا العصر أهمية لا تلقاها أي آراء أُخرى، حتى إن غاستون بوتول[1] يقول: لولا أثر ابن خلدون التاريخي لجهلنا اليوم ما كان عليه تاريخ شمال إفريقيا منذ الفتح الإسلامي حتى القرن الرابع عشر، ولولا ابن خلدون لاقتصر جميع من يودون جعل اتصال هنالك بين آخر الإمبراطورية الرومانية والعهد البيزنطي والأزمنة الحديثة على فرضيات، ولولا ابن خلدون لأعوزنا على الخصوص ما يجب وجوده من العناصر الضرورية لتكوين فكرة على شيء من الصحة حول ما كانت عليه الحياة في شمال إفريقيا في أثناء الدور الوحيد الذي وكل أمرها فيه إلى نفسها فعادت لاتكون غير ذات صلة نظرية بالأمم الأُخرى[2].

هذا من الناحية السياسية أما من الناحية الفكرية فإننا سندع ابن خلدون يحدثنا عنها حين يقول عن العلوم في هذا العهد: (فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدولة فيه، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر، وذلك أن القيروان[3] وقرطبة[4] كانتا حاضرتي المغرب والأندلس واستبحر عمرانهما،

---

(1) غاستون بوتول: مستشرق فرنسي معاصر يحمل دكتوراه في الآداب ودكتوراه في الحقوق، عمل عضواً في المعهد الدولي لعلم الاجتماع وأستاذاً في كلية الدراسات الاجتماعية العليا بباريس، له تصانيف كثيرة في علم الاجتماع، من المهتمين بدراسة ابن خلدون.

(2) غاستون بوتول/ ابن خلدون/ تر. عادل زعيتر/ ص9.

(3) القيروان: مدينة عظيمة بتونس بناها عقبة بن نافع حوالي سنة 55هـ، ينسب إليها عدد من العلماء منهم محمد بن أبي بكر التميمي تلميذ القاضي الباقلاني. انظر: ياقوت الحموي (معجم البلدان) ج4، ص420/ 421.

(4) قرطبة: مدينة عظيمة بالأندلس، عمرها ملوك بني أمية، بها مسجد قرطبة الشهير الذي خرج مشاهير العلماء المنسوبين إلى هذه المدينة، ومن ينسب إليها: أبو بكر يحيى الأزدي المتوفى سنة 567 وأحمد بن عبد البر وغيرهم. انظر: ياقوت الحموي (معجم البلدان) ج4 ص324.

وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافعة وبحور زاخرة، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة، فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً كان في دولة الموحدين[1] بمراكش[2] مستفاداً منها، ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية في أولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم تتصل أحوال الحضارة فيها إلا في الأقل[3].

لقد كان طابع العلوم في عصر ابن خلدون في العموم مركزاً على العلوم الشرعية، وما يتعلق بها من علوم عقلية وفكرية متنوعة كانت تعرض بأساليب كلها لا تخرج عن التقليد واجترار الماضي، بحيث لم يكن هناك فرصة للإبداع العقلي نتيجة فساد الحياة السياسية وتدهور الأوضاع الاجتماعية[4].

ب ـ أسرته:

يسجل كثير من الباحثين دوراً مهماً للأسرة الخلدونية في تكوين شخصية عبد الرحمن بن خلدون، ذلك أن هذه الأسرة عرفت بعراقة النسب وأصالته، وإغراقه في الارستقراطية والتعلق بسدد الحكم في مناطق مختلفة، (ويدل تاريخها على أنها كانت تطمح دائماً إلى السلطة، ولئن صدقنا نسبها الذي يرجعها إلى قبيلة كندة فإننا نميل إلى الاعتقاد أن للوراثة دخلاً كبيراً في المعارك السياسية التي خاض مؤلفنا غمارها)[5]. ويجب ألا يفوتنا هنا أن نشير ـ ولو اعتراضاً ـ إلى اللهجة التي يستعملها الدكتور طه حسين في حديثه عن أسرة ابن خلدون، والتي تعتمد التشكيك في قضية تكاد تكون موضع

---

(1) دولة الموحدين: من أكبر الدول الإسلامية التي نشأت بالمغرب الأقصى، امتدت فترتها من سنة 541/ 668هـ (1147/ 1262م) قامت بعد سقوط المرابطين، ومن مشاهيرها المهدي بن تومرت. انظر: إبراهيم حركات (المغرب عبر التاريخ) الدار البيضاء/ ج1/ ص259.

(2) مراكش: مدينة بالمغرب بناها يوسف بن تاشفين سنة 470 وقيل 459.

(3) مقدمة ابن خلدون/ ج4/ د. علي وافي/ دار النهضة/ مصر/ ص1020.

(4) محمد عابد الجابري/ العصبية والدولة/ ص40 وما بعدها.

(5) طه حسين / فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) ص14.

اتفاق من الباحثين، وهذا الأمر يؤكد ما سبق أن أشرت إليه من الموقف الذي يتخذه عميد الأدب العربي من علامتنا، وهو الموقف الذي يؤكد ابتعاد أحكام طه حسين عن العلمية في حديثه عن ابن خلدون.

إن العائلة الخلدونية كانت إحدى أسر ثلاث عرفت بقوتها في إشبيلية[1]، حيث كان لها دور في الحياة السياسية فيها، إضافة إلى دورها الشهير في حركة الجهاد ضد العالم الغربي، ومن ذلك دورها في معركة الزلاقة الشهيرة[2]. ولم يغير نزوح هذه العائلة من الأندلس إلى تونس شيئاً من طبيعتها ودورها الريادي، فلقد شهد لها التاريخ بتصدر في الحياة السياسية هناك إذ تقلد أجداد ابن خلدون العديد من المناصب السياسية العليا، وأدوا خدمات جليلة إلى كثير من الأسر التي في إفريقيا، وعرفوا بكفاءة عالية مما أدى إلى كسبهم ثقة الأمراء ونيلهم الحظوة لديهم، وإلى جانب هذه المكانة السياسية عرفت الأسرة الخلدونية بشهرتها الروحية والفكرية، فلقد ظهر فيهم الكثير من العلماء في مختلف ضروب المعرفة، ومنهم والد ابن خلدون نفسه، ولقد سجل الكثير من الباحثين هذه المكانة العلمية المتفوقة للأسرة الخلدونية، حيث يقول أحدهم: لقد كان عبد الرحمن بن خلدون ينتمي إذن إلى إحدى أكبر العائلات في تونس، إذ إنها كانت تحتل مركزاً محموداً سواء في الشؤون السياسية أو في العلوم الأدبية واللاهوتية، وقد شكل منزل آل خلدون حلقة أدبية حقيقية يرتادها أكبر أسماء الأدب والدين[3].

---

(1) إشبيلية: مدينة من أعظم مدنها وأكثرها آثاراً، قيل في بانيها وسبب بناءها الكثير، رحل عنها المسلمون إثر تسليمهم لها سنة 646. انظر: محمد الحميري الروض المعطار في خبر الأقطار، تحق. د. إحسان عباس/ مكتبة لبنان، ص58/ 60.

(2) موقعة الزلاقة: موقعة شهيرة بين المرابطين وملوك الطوائف من جهة، ونصارى إسبانيا من جهة وقعت سنة 479/ 1086، قدر عدد الجيش النصراني فيها بين 40/ 50 ألفاً، وانتصر فيها المسلمون الذين بلغ عددهم قرابة الخمسين ألفاً، وتقول الروايات أنه لم ينج من الجيش النصراني سوى خمسمائة فارس. انظر محمد عنان (دول الطوائف) ص320.

(3) إيف لاكوست (ابن خلدون) تر. د. ميشال سليمان. ص46.

ج ـ شخصيته :

تذكر كتب التراجم ومعظم الباحثين الذين تعرضوا للفكر الخلدوني أن عبد الرحمن كان يتمتع بشخصية قوية مؤثرة استطاعت أن تجذب إليها الكثيرين عرباً وبربراً وأوروبيين وعجماً، ولم يقف أصله المغربي حائلاً أمام شخصيته من أن تنال حظوة حتى عندما هاجر من المغرب إلى المشرق، ولقد اعتمدت هذه الجاذبية ـ كما يرى البعض ـ على جانبين هما: قوة التحصيل العلمي عنده، وخبرته السياسية، فالأولى مكنته من أن ينال شهرة واسعة في موقع علمي درس فيه سواء في المشرق أو في المغرب، وكان دافعاً لأن يلتف حوله الكثير من طلاب العلم والمعرفة خاصة في فترته المشرقية بعد تأليفه كتاب العبر، والثانية كانت فرصة له في أن تفتح له أبواب السلاطين والأمراء للعمل في أعلى المناصب عندهم، أو لمساعدتهم في الخروج من أزماتهم السياسية، أو للتوسط في حل الكثير من القضايا الاجتماعية[1]، لذلك صارت حياته سلسلة طويلة من حوادث النجاح والفشل: (إنه وصل إلى أعلى مناصب الحكم في عهد ملوك كثيرين في دول متعددة، ولكنه في الوقت نفسه تعرض إلى محن ونكبات متنوعة مرات مختلفة، إنه تنعم بنعم القصور ولكنه ذاق مرارة الاعتقال والسجن أيضاً، دخل غمار الحياة قبل أن يبلغ العشرين من عمره وقام بمهمة سياسية خطيرة بعدما وصل إلى عتبة السبعين، وبين وظيفته الأولى ومهمته الأخيرة تولى كتابة السر وخطة المظالم، وصار وزيراً وحاجباً وسفيراً ومدرساً وقاضياً وخطيباً[2].

ولا شك في أن هذه الفرص التي أتيحت له للتقلب في هذه المناصب المختلفة إنما كانت بسبب ما يتمتع به من عبقرية نادرة أكسبته ثقة معاصريه، وفتحت له أبواب الارتقاء السياسي والعلمي الذي دفع به إلى شهرة كبيرة لم

---

(1) د. مصطفى الشكعة (الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون) الدار المصرية اللبنانية/ ص19.

(2) أبو القاسم كرو (العرب وابن خلدون) دار المغرب العربي. ص18.

يصل إليها الكثير ممن عاصروه أو سبقوه، إذ لم ينقطع البحث في هذه الشخصية وفي ما توصلت إليه من إبداعات كبيرة.

ونتيجة لذلك كله فإننا صادفنا في تعرفنا على هذه الشخصية آراء متعددة يجدر بنا أن نمر على بعضها، لأنها كفيلة بأن تظهر لنا أن مؤلفنا من الشخصيات الفذة في تاريخ الفكر الإسلامي، ومن الإسهامات البارزة والمتميزة في ميدان الفكر الإنساني، يقول عنه صديقه ومعاصره لسان الدين بن الخطيب وهو من العلماء والمشاهير: (رجل فاضل حسن الخلق جم الفضائل باهر الخصل رفيع القدر ظاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس خاص الزي عالي الهمة عزوف عن الضيم صعب المقادة قوي الجأش طامح لفتن الرياسة خاطل للحظ متقدم في فنون عقلية ونقلية متعدد المزايا سديد البحث كثير الحفظ صحيح التصور بارع الخط مغرى بالتجلة جواد حسن العشرة مبذول المشاركة عاكف على رعي الأصالة)[1]، ويقول عنه تلميذه المقريزي[2] إنه مفخرة من مفاخر التخوم المغربية.

غير أن ابن خلدون وإن افتخر به معاصروه، وتحدثوا عن خصاله الرفيعة وتطلعاته الشريفة إلا أننا نجد بعض الباحثين المتأخرين الذين عرفوه من خلال الكتب والروايات التاريخية فقط يحاولون الحط من قدر هذه الشخصية بأن يؤولوا بعض إبداعاتها بجوانب لم يذكرها معاصروه ولم يتحدث عنها حتى خصومه، ومن هؤلاء مثلاً الدكتور طه حسين الذي أشرت قبل صفحات إلى موقفه، والذي يقول عنه هنا: (وإني أعتقد أن ابن خلدون كان قبل كل شيء سياسياً وافر الحكمة والبراعة، على أنه لم يستخدم براعته

---

(1) د. مصطفى الشكعة (الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون) ص23.

(2) المقريزي: تاج الدين أحمد بن علي: مؤرخ مصري ولد بالقاهرة سنة 1364 وتوفي سنة 1442، تقلد وظائف علمية وسياسية متعددة بالقاهرة ودمشق، له أعمال علمية كثيرة أهمها: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار/ السلوك لمعرفة دول الملوك/ اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء. الخ، انظر: الموسوعة الميسرة ص1731.

السياسية لتأييد دولة أو أسرة كما استخدمها لمنفعته الشخصية، كان تغلب فيه عاطفة الأثرة، وذلك واضح في ترجمته وضوحها في جميع مؤلفاته، ومن الممكن جداً أنه لم يكتب ترجمته إلا حباً في التحدث عن نفسه ورغبته في الظهور[1]. ويقول عنه أيضاً: (إذا كان ابن خلدون شديد الحب لنفسه فالظاهر أنه لم يعرف وطناً ولا أسرة، فالوطن في نظره هو حيثما استطاع العيش في رغد واعتبار، لم يتأثر من زيارته لإشبيلية موطن أجداده ولم يغادر مقام عزلته ليعود إلى تونس مسقط رأسه إلا ليطالع في مكاتبها. وقد غادر تونس إلى مصر دون أسف)[2].

وعلى الرغم من تسليمنا ببعض التحليلات التي يذهب إليها الدكتور طه حسين إلا أننا لا نوافقه على مجمل آرائه، إذ إن الظروف هي التي دفعت ابن خلدون أن يبتعد عن الوطن والأهل، شأنه في ذلك شأن أي لاجيء سياسي في هذا العالم المعاصر، ذلك أننا لا نستطيع أن ننفي الوطنية عن كل من هاجر من وطنه طلباً لأمن افتقده أو بحثاً عن رزق اقتطع منه فيه، ومما نخالف فيه الدكتور أيضاً هو حديثه عن سيرة ابن خلدون الذاتية، فبقدر ما اعتبرها حديثاً عن النفس وطلباً للشهرة فقد اعتبرها آخرون ابتداعاً لفن جديد من فنون الكتابة وهو ما يسمى بـ(الأوتوبيوجرافي) AUTO-BIOGRAPHIE، والشهرة التي نالها ابن خلدون هي ما تحدثت به مقدمته لا سيرته الذاتية التي لم ير فيها الباحثون إلا معيناً على فهم المقدمة التي لا زال البحث يتجدد فيها كلما اتجه إليها الباحثون على اختلاف العصور.

إن الدكتور طه حسين على الرغم من هذه الآراء المخالفة والتحليلات المغرقة في التشاؤم من هذه الشخصية إلا أنه لا يستطيع أن يخفي إعجابه بما قدم ابن خلدون للفكر الإنساني، فنراه في موضع آخر يقول: (على أن الذي

---

(1) د. طه حسين (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) ص26/ 27.

(2) المصدر السابق. ص28.

يعنينا من أمره بنوع خاص هو توقد ذكائه وسمو فكره ذي الرجاحة النادرة، وسعة معارفه ورسوخها وطرافة آرائه ونفاسة مؤلفاته، يوجد في هذا العالم رجال لا وازع لهم ورجال بلاط مهرة دهاة، ولكن يندر وجود ذوي النباهة الطريفة الخصبة، وابن خلدون أحد هؤلاء، فإليه يرجع الفضل في أن الآداب العربية تستطيع أن تفخر بأنها كانت الأولى في وضع الفلسفة الاجتماعية في قالب علمي ومن السخف أن نتمسك ببوادر ضعف إنسانية جداً لنتوصل بذلك إلى أن ننتقص من فضل شخصية لاريب في عظمتها)[1].

د ـ شيوخه وما تعلم منهم:

من الأمور التي يتفق عليها الباحثون هي قوة التحصيل العلمي عند ابن خلدون، الذي بدأ منذ فترة مبكرة من حياته ترجع إلى عهد الصغر، حيث تولاه وألده الذي كان على درجة من العلم والمعرفة، وعلى عادة أهل ذلك العصر بدأ تعليمه بحفظ القرآن الكريم وتعلم أحكامه وقراءاته، ثم ثنى بدراسة السنة النبوية والفقه وعلوم اللغة والأدب والعلوم العقلية الأُخرى، وأخذ من كل هذه بنصيب وافر، حيث درسها على يد علماء مشهورين في ذلك العصر يذكرهم ابن خلدون بتفصيل وإعجاب بهم، خاصة أستاذه الآبلي[2] الذي أضفى عليه حلة من الأوصاف البليغة المعبرة عن مدى إعجابه وتقديره له، والذي قال عنه أيف لاكوست: (إن الآبلي هو أحد أشهر فلاسفة العصر)[3].

ومن الذين درس عليهم ابن خلدون وذكره في التعريف (محمد بن

---

(1) د. طه حسين (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) ص 29.

(2) الآبلي: أبو عبد الله محمد بن إبراهمي الآبلي، نسبة إلى آبلة وهي مدينة تقع في الشمال الغربي من مدريد، شيخ ابن خلدون وأحد الذين يعزى لهم الأثر في تكوينه الفكري، يقول عنه جاك بيرك: (إنه ينزع نزعة عقلية حرة في الثورة ضد الخنوع الفكري الذي كان سائداً على المؤسسات العلمية في زمانه. انظر: المقدمة/ ج1 ص43.

(3) إيف لاكوست (ابن خلدون) تر. د. ميشال سليمان/ دار ابن خلدون/ بيروت، ط2. ص49.

سعد بن برال الأنصاري، ومحمد بن العربي الحصايري، ومحمد بن الشواش الزرزاني، وأحمد بن القصار، ومحمد بن بحر، ومحمد بن جابر القيسي، ومحمد بن عبد الله الجياني الفقيه، وأبو القاسم محمد القصير، ومحمد بن عبد السلام، ومحمد بن سليمان الشطي، وأحمد الزواوي، وعبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي، وأبو محمد بن عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضرمي، وأبو عبد الله بن إبراهيم الآبلي)[1].

أما الكتب التي درسها فإنها كانت (اللامية في القراءات، والرائية في رسم المصحف وكلتاهما للشاطبي، والتسهيل في النحو لابن مالك، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، والمعلقات، وكتاب الحماسة للأعلم، وطائفة من شعر أبي تمام والمتنبي، ومعظم كتب الحديث وخاصة صحيح مسلم وموطأ مالك والتقصي لأحاديث الموطأ لابن عبد البر، وعلوم الحديث لابن الصلاح، وكتاب التهذيب للبرادعي ومختصر المدونة لسحنون في الفقه المالكي، ومختصري ابن الحاجب في الفقه والأصول والسير لابن إسحاق)[2].

وليس بخاف على أحد أن هذه حصيلة علمية كبيرة من شأنها أن تهيىء متلقيها ودارسها لأن يتصدر مجالس العلم باحثاً ومدرساً وقاضياً وخطيباً، وهذه هي الجوانب التي ظهرت في شخصية ابن خلدون وعرف بها من خلال ممارسته لها، وهذا على العكس مما يعرف به الآن من أنه منشىء علم الاجتماع، ومؤسس نظرية في فلسفة التاريخ، ومبتدع علم السيرة الذاتية، وغير ذلك من العلوم التي يهتم بها الباحثون المعاصرون، والتي لا نجد لها صدى فيما درسه ابن خلدون من علوم، مما يجعلنا نؤكد بأن تلك العلوم إنما كانت نتيجة تجربة شخصية وإبداعات عقلية فردية كوّنها ابن خلدون من خلال تأملاته الحياتية المختلفة.

---

(1) د. علي وافي (عبقرية ابن خلدون) ص26.

(2) المرجع السابق نفسه.

هذا ويهمنا أن نشير إلى أن اللهجة التشكيكية التي سار عليها الدكتور طه حسين في كتابه عن ابن خلدون قد طالت هذا الجانب أيضاً، حيث يذكر الدكتور أن ابن خلدون قد ذكر كتباً قال بأنه درسها وهو في الواقع لم يتصل بها، ولم يتحصل عليها، وإنما ذكرها من باب التباهي فقط ومما قاله الدكتور: (ويذكر لنا في مقدمته أن الكتب التي درسها في حداثته وصباه كانت نادرة في تونس، وهذا هو السبب في أن عددها بالتفصيل ولا سيما أنه كتب ترجمة حياته في القاهرة، حيث كان من المحتوم عليه أن لا يبدو أقل شأناً من منافسيه أساتذة الأزهر، بيد أنه يجب أن نرتاب قليلاً في تلك التفصيلات، وقد أمدنا ابن خلدون نفسه بداعي ذلك الريب، فهو يقرر مثلاً أن مختصر ابن الحاجب (1175/ 124هـ) كان من بين الكتب التي يقول إنه درسها في تونس، ويعده ضمن كتب الفقه المالكي في ترجمته وفي مقدمته، مع أن مختصر ابن الحاجب ليس كتاب فقه بل هو كتاب في أصول الفقه وهو مؤلف جم الانتشار لا يزال يدرس في الأزهر حتى يومنا هذا)[1].

ومثل ما يذكره على مختصر ابن الحاجب يذكره حول كتاب الأغاني الذي يقرر الدكتور في شأنه أن ابن خلدون لم يعرف منه سوى الاسم، وهذا كلام لا أساس له من الصحة، وقد ناقشه بتفصيل الدكتور علي عبد الواحد وافي في (كتابه عبقريات ابن خلدون) حيث أثبت بأدلة علمية صدق كلام ابن خلدون من وجود مختصر في الفقه لابن الحاجب، وأن الدكتور طه حسين هو الذي شبه عليه ولم يستطع التفريق بين الكتابين.

هذا ونود أن ننبه إلى خطورة الآراء التي عرضها الدكتور طه حسين عن ابن خلدون وإلى ضرورة الحذر منها، حيث إنها تبين بوضوح أن له موقفاً ذاتياً من ابن خلدون ساعده في اتخاذه تلمذته على أساتذة غربيين عجزوا عن

(1) د. طه حسين/ فلسفة ابن خلدون الاجتماعية/ ص15.

فهم اللغة العربية، ووقعوا في أخطاء فادحة منها هذه القضية التي نحن بصددها، والتي أساسها كما يذكر الدكتور علي وافي اعتماد الدكتور طه حسين على المستشرق دوسلان الذي لم يستطع فهم عبارة ابن خلدون على وجهها الصحيح[1].

هـ ـ حياته الاجتماعية:

لم تكن أفكار ابن خلدون وآراؤه المختلفة إلا انعكاساً واضحاً لتجربة اجتماعية خاض غمارها خلال سني حياته، فهو قد بدأ رحلته الحياتية هذه بالاغتراف من العلوم والمعارف التي كانت محط اهتمام علماء عصره، وخاصة العلوم الشرعية واللغوية وهذه أكسبته قدرة على التعامل مع مختلف العلوم الأُخرى بعقلية متفتحة قادرة على التحليل والاستنتاج، ولذلك يرجح الكثير من الباحثين سبب تألقه إلى بنائه العلمي المبكر، الذي مكنه من النبوغ والتألق، مما فتح أمامه المجال للدخول إلى معترك الحياة السياسية وهو لا يزال شاباً في مقتبل العمر.

وكان لدخول ابن خلدون إلى الحياة السياسية أثر كبير في منحه الفرصة الذهبية التي مكنته من أن يعايش الواقع الاجتماعي عن قرب، ويرى ما فيه من اضطرابات وفتن وما يمكن أن تقارن به من مظاهر الاستقرار والهدوء، ويرى إلى جانب ذلك تشبث الأشخاص والأسر بالمناصب والكراسي، وما يؤدي بهم إلى التحالف مع جماعة ومعاداة أُخرى، وما يؤدي بهم إلى استخدام كل ما يملكون في سبيل تحقيق مآربهم، وتمكن من خلال ذلك إلى الاطلاع على ما تحدثه هذه الصراعات من آثار مدمرة على الحياة الاجتماعية، بحيث لا تتيح فرصة لتقدم عمراني أو ازدهار حضاري.

ومن خلال مشاركته المباشرة في هذه الأحداث استطاع أن يصل إلى

---

(1) د. علي وافي/ عبقريات ابن خلدون/ ص27 وما بعدها.

القمة أكثر من مرة، وأن يحظى أثناء ذلك بالتقدير والاحترام الكبيرين، ثم كان أن عصفت به الأحداث ليصبح في القاع مرات متعددة ليذوق مرارة الغربة وضيق السجون وذل الهزيمة وفقدان المعين والناصر، وكان لكل ذلك أثر في تكوين تجربته الحياتية، وقدرته الفائقة بعد ذلك على النظر إلى الحوادث التاريخية نظرة تختلف عمن يحاول أن يسرد الأحداث دون أن يحس بآلامها وآمالها. يقول غاستون بوتول: (إن الأدوار المضطربة ملائمة لنشوء الشخصيات الحازمة خاصة في حقل العمل كما في حقل الفكر، ويلوح أن غليان النفوس واضطرابها يسفران عن فضول أعظم حدة وعن شهوات أكثر شدة، فالطموح يرهف بفعل الاضطراب ومنظر انقلاب الأوضاع، فيرتفع إلى درجة من الحرص يندر بلوغه في الأدوار التي تظهر فيه مصائر الناس تامة الارتسام في سواء مجتمع هادىء منظم)[1].

ولعل هذه الحياة السياسية الصاخبة التي عاشها ابن خلدون بكل ما فيها من لذة وعناء قد جعلت منه شخصية اجتماعية سياسية يحسب لها حسابها في إقامة التوازنات الاجتماعية، إذ كثيراً ما كان يستدعى لمؤازرة حاكم في استمالة بعض القبائل لصالحه وتسخيرها لتثبيت حكمه، وهذا أدى به بالطبع إلى معرفة غير يسيرة بالأعراق ودورها في حسم الصراعات السياسية وهو الأمر الذي يحاول بعض الباحثين الإشارة إليه على أنه العامل في بروز نظرية العصبية والدولة عند ابن خلدون.

وهكذا نستطيع القول بكل اطمئنان إن حياته الاجتماعية كان لها دور بارز في تكوين شخصيته وفي توجيه علومه وإثراء ثقافته. فالرجل عاش حياة غير مستقرة، فلم يطل به المقام في مكان واحد، ولم تمنحه الأقدار فرصة الركون إلى وطن يشعر فيه بلذة الاستقرار، فكلما شعر بالراحة والاطمئنان في مكان ألم به خطب أدى به إلى التفكير في دار أُخرى وبلد جديد.

---

(1) غاستون بوتول: ابن خلدون/ تر. عادل زعيتر/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص11.

وهكذا أتيح له أن ينتقل بين بلاد متعددة، وأن يرى شعوباً مختلفة، وأن يخالط أناساً ذوي اتجاهات متباينة وميول متعددة وثقافات مختلفة، وتلك لوحدها تجربة وفرصة نادرة لتكون الشخصيات العظيمة، فالسفر ثقافة لا توفرها الكتب، وعلى الرغم من أن ابن خلدون اضطر إليه إلا أنه استفاد منه كثيراً مستعيناً بعقليته الجبارة وذكائه المتوقد.

وإلى جانب متاعب السفر والألم وعدم الاستقرار فلقد ذاق ابن خلدون مرارة الوحدة بعيداً عن الأهل والولد، وذلك حين أفقده الطاعون والديه، وأفقده البحر زوجه وولده، وأفقده السجن والنفي الصديق والحبيب، وتلك تجربة أُخرى كان لها أثر في تكوين هذه الشخصية، فلقد زادته هذه المحن صلابة وأكسبته الوحدة ثقافة وخبرة، وزاده الحزن إصراراً على الاعتماد على النفس حين التفرد، وسعياً للوصول إلى المراد دون الاستكانة للمعوقات، وتلك كانت نقطة بارزة في حياته لا يمكن تجاوزها وإنكار أثرها في تكوين شخصيته.

وتجدر الإشارة هنا إلى ثلاث نتائج يمكن أن نفيد من ذكر مجملها هنا وهي:

1 ـ هناك إجماع من الباحثين المهتمين بفكر ابن خلدون على أن التجربة السياسية والاجتماعية التي عاشها كانت مصدراً أساسياً من مصادر فكره السياسي والاجتماعي.

2 ـ أن الإحباط النفسي الذي أصابه حين انتقاله من حياة العز إلى حياة التشرد والذل قد أثر في شخصيته، وأعطى تجربته ثراءها وخصبها، وعمل إلى حد كبير على تشكيل فكره بالصورة التي هو عليها.

3 ـ كان للعلوم التي تلقاها، والدراسات التي اتصل بها، والأساتذة الذين تتلمذ عليهم، والمجالس العلمية التي شارك فيها، والحلقات الدراسية التي درس فيها، أثر كبير في صبغ فكره بالطابع الموسوعي الذي نجد

فيه مختلف العلوم والمعارف كما يعلم ذلك الكثير[1].

أما ختام هذه النقطة فهو الجانب الشخصي في حياة ابن خلدون الذي يعبر عن شخصية طموحة متألقة تواقة إلى اكتساب المعالي بشتى الوسائل كما يرى الباحثون، لم تفلح المصائب في ثنيها عن بلوغ المعالي، ولم يستطع الخصوم أن يشكلوا حجر عثرة أمام تطلعاته السياسية والعلمية، بل كان كلما ألّم به خطب دفعه إلى سلم أعلى، وحتى عندما تاقت نفسه إلى هجران الحياة السياسية والانتقال منها إلى حياة العلم والمعرفة ولو كانت بعيداً عن الأهل والوطن، لم يفلت أي فرصة تواتيه للتألق السياسي، وكان ذلك واضحاً في موقفه مع تيمورلنك، ذلك الموقف الذي دل على عظيم قدرة ابن خلدون على استغلال المواقف لصالحه، والقدرة على صنع الأحداث حتى في أشد حالات الضعف، وكل ذلك لم يكن ليحدث لولا تلك الشخصية الفريدة التي امتاز بها ابن خلدون، والتي كانت نقطة مفارقة بينه وبين أقرانه ومعاصريه.

(1) محمد الجابري/ العصبية والدولة/ ص87 وما بعدها.

ابـن خـــلدون

(الـتـــــراث)

كنت قد ناقشت في الفصل السابق بعض الجوانب المتعلقة بشخصية ابن خلدون والعوامل التي لها دور مهم في تكوين هذه الشخصية، والحقيقة أن هذا الجانب الشخصي ليس له أهمية إلا من خلال النظر إلى ما خلفته هذه الشخصية من أعمال علمية كان لها أكبر الأثر في إثراء الفكر الإسلامي بآراء ونظريات جديدة وجادة استطاعت ـ ولو في فترة متأخرة ـ أن تحظى باحترام وتقدير واهتمام الكثير من الباحثين العرب والغربيين، واستطاعت هذه الشخصية أن تثري المكتبة العربية بل الإنسانية بمؤلفات شهد لها الكثيرون بالجدة والطرافة وعظم الأهمية، من هذا المنطلق فقط تبرز أهمية الحديث عن شخصية ابن خلدون بوصفه علماً من أعلام الفكر الإسلامي في مرحلة من أحلك وأصعب المراحل في تاريخ الثقافة الإسلامية، استطاع أن يتميز عن نظرائه من أعلام الفكر الإسلامي بالبعد عن التقليد والتبعية، والاتجاه إلى الخلق والابتكار والإبداع، ومن هنا ونتيجة لظروف العصر الذي عاش فيه كانت آراؤه وأفكاره تلقى جفاء، ويتصدى له الحساد والأعداء محاولين خنق هذه الشخصية المبدعة الخلاقة، ولكنهم في النهاية لا يجدون بداً من الاعتراف بفضله، وها هو طه حسين على الرغم من كل الآراء الجارحة التي يضمنها في كتابه عن ابن خلدون لا يجد في النهاية بداً إلا أن يعترف بفضله

في جوانب متعددة من جوانب الفكر الإسلامي حيث يقول: (على أن الذي يعنينا من أمره بنوع خاص هو توقد ذكائه وسمو فكره ذي الرجاحة النادرة وسعة معارفه ورسوخها وطرافة آرائه ونفاسة مؤلفاته)[1].

ولعل الملفت للنظر في هذه الشخصية اللامعة أن ما خلفه من آثار وما قام به من أعمال لم يلق استجابة فورية في عصره تعادل أو تقترب من الاستجابة التي تلقاها آراؤه في العصر الحديث، وتلك قضية أرجو أن أتناولها في موقعها من البحث ـ إن شاء الله تعالى ـ ولكن المهم في تلك النظرة العدائية، وذلك الجفاء الذي لقيه ابن خلدون من معاصريه، لدرجة أن أحد الباحثين يصور ذلك فيقول: (إنه لا المقدمة ولا ما قام به ابن خلدون من تدريس استطاعا أن يخلقا أثراً باقياً في موطنه الأصلي بل إنه في الحقيقة أن انعدام الفهم الشمولي والعداء الثابت استطاعا أن يصنفاه مفكراً غير مقلد، وعبقرية صدامية خلفت واحدة من أكبر الدراما المتواصلة، وواحدة من أكثر الصفحات التاريخية حزناً في تاريخ الثقافة الإسلامية)[2].

لن يكون حديثي عن تراثه إلا في القليل جداً الذي تتطلبه الدراسة من سرد ضروري لا بد منه، ولكن الذي سأحاول التوجه إلى بحثه هو التصنيف العلمي لهذه العقلية الفريدة ونوع العلم الذي تنتسب إليه، ولماذا يتجه الباحثون إلى جانب ويهملون جانباً، ولماذا كل هذا الاهتمام به في هذا العصر؟ وهل هذا على حساب قضايا أخرى أو أنه جدير بذلك، هذه وغيرها من القضايا، الأخرى هي التي سأحاول التركيز عليها محاولاً قدر الإمكان أن يكون لهذه الدراسة جدة في هذه القضايا ومبتعداً أيضاً قدر الإمكان عن إعادة ما سطره الباحثون قبلي في هذا الموضوع وبالله التوفيق.

---

(1) طه حسين/ فلسفة ابن خلدون الاجتماعية/ دار الكتاب اللبناني/ ص29.

(2) Bruce lawrence/ Ibn Khaldun and Islamic Idealogy/ E. J/ Brill. Leiden/ 1984/ P4.

آثار ابن خلدون

خلّف ابن خلدون مجموعة لا بأس بها من الآثار العلمية المهمة لا يمكن أبداً أن تقاس بكميتها. فغيره من الكتّاب والباحثين والعلماء قد خلفوا أضعاف ما خلفه عشرات المرات، ولكن لم تترك آثارهم أي أهمية كتلك التي تركتها آثاره والتي تقاس بجدتها وإبداعها وتفردها، ويمكن أن ترتبط آثاره بفترتين رئيستين هما: الفترة المغربية والفترة المصرية، وهذه قد كشفت لنا عن ثلاثة أعمال رئيسة هي:

أ ـ الترجمة الذاتية (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً)

ب ـ الوصف الجغرافي لبلاد المغرب الذي كتبه بطلب من تيمورلنك.

ج ـ تنقيح بعض الفصول من مؤلفه الشهير (كتاب العبر) بعد توافر الجديد من المصادر والمعلومات[1].

أما الفترة الأولى فهي التي كشفت عن بقية أعماله وأعظمها التي نرتبها كالتالي:

1 ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وهو كتاب كما يبدو من خلال عنوانه في تاريخ الأمم والممالك، فهو إذاً ـ كما هو مفترض ـ كغيره من كتب التاريخ المعاصرة له والسابقة عنه سرد لأهم الحوادث البشرية الماضية، ولكن ابن خلدون بعقليته الجبارة يجعله أحد أهم وأنفس الكتب التاريخية التي لا تكتفي بمجرد السرد، بل تحاول الغوص في أعماق الخبر لتصل منه إلى تلمس العبر التي يفترض أنها منال علم التاريخ وغايته. وبهذا الاتجاه يجعل ابن خلدون من مؤلَّفه هذا بما تضمنه من منهجية تاريخيه جديدة، وما احتواه من أخبار هو شاهد

(1) د. سفيتلانا باتسيفا/ العمران البشري في مقدمة ابن خلدون/ ص86.

عيانها أحد أهم وأنفس المصادر التاريخيه التي يعترف الكثيرون بنفاستها وأهميتها التاريخية الكبيرة، فالعلامة Toynbee يصف هذا الكتاب بقوله إنه (أعظم كتاب من نوعه ألفه عقل إنساني في أي زمان ومكان)[1].

والمستشرق (إجناتنكا) يقول عنه: (يعد هذا العمل حتى يومنا الراهن أحد المصادر الهامة لمعرفة العالم العربي والإسلامي في العصر الوسيط)[2].

ويقول عنه (غاستون بوتول): (غير أن شأن ابن خلدون أعلى من شأن مدون للوقائع بمراحل، وذلك أنه أراد أولاً أن ينتج أثر مؤرخ يجاوز نطاق البلد الذي عاش فيه، فألف تاريخاً عاماً يعد عملاً عظيماً وحيداً في ذلك الزمن في دار الإسلام، غير أن ابن خلدون أراد على الخصوص أن يصنع أثراً فلسفياً أيضاً، بادئاً بتركيب معارفه التاريخية، وكان هذا مشروعاً فريداً لا مثيل له منذ عهد العظماء في الفلسفة اليونانية، وقد شعر ابن خلدون بنقص التاريخ كما كان يتمثل في زمنه، هذا التاريخ الذي كان يقوم على سرد الوقائع والأسماء والأوقات، فعزم على الارتقاء إلى معرفة ما نسميه: السنن التاريخية، وهو إذ لم يرض بالرواية ولا بالتعداد أراد الفهم والإيضاح، وأراد الدلالة إلى أصل الأمم ومعرفة أسباب الحوادث وما يمكن أن يكون بينها من تباين وتماثل)[3] ويقف لا بيكا حائراً أمام عظمة هذا المؤلف حيرة تدفعه إلى أن يقول: (إلى أي صنف من العلماء ينتسب ابن خلدون؟ ذاك سؤال أول يمكن أن يتطارحه القارىء المعاصر وليس الغربي فقط، وإزاء ضخامة كتاب العبر، ذلك أنه وإن كان لا يمكن أن ننكر على ابن خلدون أصالته كمؤرخ يبقى من المناسب تحديد طبيعة موقفه في المنهج الذي يشتغل به، وفي

---

(1) توينبي Toynbee/ دراسة في التاريخ/ ج3/ ط2/ لندن 1935م/ ص322.
(2) أجناتنكا/ ابن خلدون/ تر. د. علاء حمروش/ مركز اتحاد المحامين العرب/ ص25.
(3) غاستون بوتول/ ابن خلدون/ تر. عادل زعيتر/ ص10.

الموضوع الذي يؤسس المنهج، من أجل أن نحيط بوحدة الميادين المختلفة، تلك الوحدة التي يوحي بها موقفه)[1]. أما المستشرق (دوزي) فلا يستطيع أن يخفي إعجابه بما احتواه كتاب العبر من أخبار تفرد بها حول تاريخ النصارى في إسبانيا حيث يقول عن رواياته بأنها: منقطعة النظير ولا يوجد في بحوث العلماء الغرب المسيحيين في العصور الوسطى ما يستحق أن يقارن، وأنه لم يوفق أي عالم من هؤلاء إلى تدوين تاريخ عن هذه الدول في مثل الدقة والوضوح الذي يتسم بهما تاريخ ابن خلدون)[2].

تلك هي أهمية كتاب العبر كما صورها بعض المستشرقين، وهي ـ ولا شك ـ، دلالة مهمة في تقدير قيمة الكتاب بين سائر كتب التاريخ عامة وفي مقدمة كتب التاريخ التي اهتمت بتلك الفترة، وبذلك الجزء من العالم وهو الشمال الإفريقي، وعلى الرغم من هذه الآراء المهمة في كتاب العبر إلا أننا نجد أنه لم يحظ كله باهتمام كبير من قبل الكتاب والباحثين إلا في المجلد الأول منه، وهو الذي عرف بمقدمة ابن خلدون التي هي مقدمة هذا الكتاب، والسبب واضح يكمن في تلك العلوم المختلفة التي تناولها في هذه المقدمة، والنظريات الجديدة التي تتعلق بالعمران البشري وما يؤدي إليه من تطور الأمم وانحطاطها، أما بقية أجزاء الكتاب فإنها ـ كما أتصور ـ لم تلق ذلك الاهتمام الذي لقيته المقدمة إلا في جانبين اثنين هما: المنهج التاريخي الجديد الذي سلكه ابن خلدون في تتبع الحوادث ودراستها، وهو ما يعبر عنه الباحثون بفلسفة التاريخ، والثاني ما تضمنه كتاب العبر من أخبار حول الشمال الإفريقي وما يتصل به من دول وأسر حاكمة وأعراق وحوادث تاريخيه مختلفة مما لم يوجد في غيره من المصادر التاريخيه الأخرى.

---

(1) جورج لابيكا/ السياسة والدين عند ابن خلدون/ تر. موسى وهبة ود. شوقي الدويهي/ دار الفارابي/ ط1988/ بيروت/ ص25.

(2) د. على وافي/ عبقريات ابن خلدون/ ص110 نقلاً عن:

Dozy: Recherches sur I histoir etlitte rature de Epagne au Moyen, Age. p. 60.

الكتاب الأول:

وهو الذي أشرنا إليه بأنه يسمى المقدمة، وفيه يستعرض أحوال العمران البشري وما يتعلق به من طبائع الملك والسلطان وأحوال الحياة، وما يتصل بها من المعاش والعمل بصنائعه، والعلم بأدواته ووسائله، وما لذلك من علل وأسباب.

الكتاب الثاني:

وفيه يتحدث عن العرب وما يتصل بهم من أخبار وسير منذ ابتداء الخلق وإلى عصر المؤلف سارداً من جاورهم من الأمم والشعوب وأشهر دولهم وأعراقهم.

الكتاب الثالث:

وفيه ذكر تاريخ البربر وما يتصل به من ذكر أجيالهم وملوكهم ودولهم وديارهم إلخ[1].

وقد سار ابن خلدون في مؤلفه هذا على منهج علمي خالف فيه من سبقه من المؤرخين في وجوه متعددة كانت سبباً في تفرد هذا المؤلف العظيم وتميزه عن بقية المصادر التاريخية ويمكن إجمال هذا المنهج في نقاط أهمها:

1 ـ التقسيم الذي اتبعه في رسم الكتاب، حيث قسمه إلى كتب وقسم الكتب إلى فصول يتصل بعضها ببعض ذاكراً في كل ذلك تاريخ كل دولة على حدة، مؤكداً على مواطن الوصل والتدخل والالتقاء بين مختلف الدول، وهو في ذلك يخالف غيره من المؤرخين السابقين الذي اتبعوا المنهج السنوي الذي يقوم على ذكر الحوادث وفق تاريخ

(1) محمد عبد الله عنان (ابن خلدون/ حياته وتراثه الفكري) مؤسسة مختار/ القاهرة ص146 وما بعدها.

وقوعها، على الرغم من تباين موضوعاتها واختلاف أحوالها، وقد يقال إنه ليس مبتدعاً لهذه الطريقة بل هو مسبوق إليها، ولكننا نقول بأنه أعطاها دقة أكثر وتنظيماً أوضح وربطاً أحكم.

2 ـ بعده عن التأثر ومحاولته الالتزام بالموضوعية ـ إلا في بعض مواضع مشهورة ـ ولذلك يرصد كثير من الباحثين هذه القضية بكثير من الاهتمام، وذلك حين يلاحظون حديثه عن تلك الأسر أو الدول التي ظلمته واضطهدته، فيجدون أنه حديث يتسم بالاعتدال والموضوعية وهو أمر نادر الوقوع[1].

3 ـ قيامه ببعض التحقيقات العلمية لما تقدمه من دراسات تاريخية مشابهة، ومن ذلك مثلاً تعرضه لبعض المؤلفات لابن هشام وابن إسحاق والواقدي وغيرهم وفق قواعد البحث العلمي والضبط التاريخي.

4 ـ اعتماده في كثير من الحوادث المعاصرة على المشاهدة والمعايشة للحوادث، وكذلك الاتصال بالمصادر مباشرة وخاصة تلك التي لم يتصل بها غيره، وهي بلا شك أعطت لهذا المؤلف مكانة أكبر وقيمة أعلى، ومن هذا القسم يأتي حديثه عن البربر وما يتصل بهم[2].

وعلى الرغم من أن كتاب العبر يعد مصدراً ضخماً لمادة تاريخية مهمة فإنه تضمن إلى جانب ذلك علوماً أخرى تتصل بعلم التاريخ كعلم الاجتماع البشري وما يتعلق به، وقد ظلت هذه العلوم والنظريات العلمية متصلة بكتاب العبر إلى فترة متأخرة ترجع ـ كما يقول بعض الباحثين[3] ـ إلى أواخر القرن التاسع عشر، وهي تلك الفترة التي اكتشف فيها الغرب ابن خلدون وقدمه للعالم واحداً من أعظم مفكري الإسلام، ومنذ ذلك الوقت انفصل عن كتاب

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص152 وما بعدها.

(2) د. علي عبد الواحد وافي (عبقريات ابن خلدون)، ص106 وما بعدها.

(3) محمد عبد الله عنان (ابن خلدون) ص175.

العبر جزؤه الأول في كتاب عرف (بمقدمة ابن خلدون) صار وحده محط اهتمام الباحثين على مختلف اتجاهاتهم فلاسفة واجتماعيين واقتصاديين وسياسيين وغيرهم، ومنذ تلك الفترة غطت أبحاث المقدمة ونظرياتها على كل التراث الخلدوني، حيث غض الطرف عن كثير من التخصصات التي أبدع فيها وكان له في الكتابة حولها أو في تدريسها نصيب وافر، وهذا سيقودنا بالطبع إلى التساؤل عن أبحاث هذه المقدمة وما تضمنته من علوم ومعارف لعلنا نصل إلى علة اهتمام الباحثين بها على حساب غيرها من الآثار والمباحث الخلدونية الأخرى.

تشتمل المقدمة على المباحث التالية:

1 ـ الافتتاحية. وقد تناول فيها نقد الدراسات التاريخية التي سبقته، وما البواعث التي دعته إلى تأليف هذا الكتاب، والمنهج الذي اتبعه في ترتيبه.

2 ـ علم التاريخ وفضله وأهميته ومذاهب التأليف فيه، وما يعرض للمؤرخين من مغالط وأوهام وسببها.

3 ـ طبيعة العمران البشري وما له صلة به من كسب وارتزاق وصناعة وعلوم، وما يتعلق بذلك من علل وأسباب.

4 ـ بحوث في ضرورة الاجتماع الإنساني.

5 ـ بحوث جغرافية في البيئة وأثرها في طبائع الناس وأخلاقهم.

6 ـ بحوث في الغيب وما يتصل به من رؤيا وإدراك ووحي إلخ..

7 ـ البدو وما يتعلق بهم من وصف لسلوكياتهم وطرق معاشهم وأساليبهم في السياسة والحكم إلخ..

8 ـ بحوث في تكون الدول وأنماط الحكم وسائر شؤون السياسة والسلطان.

9 ـ المدن وما تتميز به عن حياة البداوة وما تتصف به ضروب الحضارة والتقدم وعلل ذلك.

10 ـ بحوث في طرق الكسب والمعاش والصنائع وأنماطها وأحوالها.

11 ـ العلوم وأنواعها وطرق السعي إليها وماله صلة بذلك[1].

هذه بصورة مختصرة جداً أهم المباحث التي تناولتها المقدمة، وهي ـ كما نرى ـ قائمة طويلة من العلوم المختلفة التي تتخذ من الإنسان محوراً لها، وهذا في حد ذاته سبب رئيسي لتميز ابن خلدون عن غيره من علماء عصره الذين استهوتهم العلوم الشرعية بضروبها المختلفة والعلوم الفلسفية ببواعثها المتعددة، ومن هنا جاءت أبحاث المقدمة لتأخذ منحى جديداً في تاريخ الفكر الإسلامي، ولتشق طريقاً جديداً في توجيه العلوم لصالح الإنسان، حتى يتمكن من تحقيق الخلافة في الأرض التي خلق لها، ولتشير إلى أهمية الابتعاد عن التعلق بالتحليق في آفاق الفكر المنطلق من نظريات وفلسفات فرضية لا تمت إلى الواقع بصلة. لقد كانت المقدمة إذن إشارة جديدة في تاريخ الفكر الإسلامي المستند إلى قواعد الدين والشرع، وانطلاقة فكرية فريدة اتسمت في مجملها بأن مبدعها اتصف بالآتي:

1 ـ أنه الباحث المسلم الذي جعل المجتمع كلّه مصدراً لتفكيره واهتمامه.

2 ـ أنه يقلب المسألة العلمية على أوجهها المختلفة الممكنة؛ الفقهية والفلسفية والأخلاقية والاجتماعية الخ...، وهو أحد الأوجه التي خالف فيها غيره ممن تقدمه من الذين طرقوا مواضيع مشابهة، كالفارابي وإخوان الصفا وغيرهم.

3 ـ أنه طرق أموراً جديدة بأسلوب لم يسبق إليه لا في الفكر الإسلامي ولا في غيره[2]، وربما كان للتجربة الحياتية دور في ذلك، ويتحدث ابن

---

(1) د. عبد الرحمن بدوي، عبقريات ابن خلدون/ ص179 وما بعدها.

(2) محمد عبد الله عنان/ ابن خلدون/ ص134 وما بعدها.

خلدون نفسه عن اكتشافاته فيقول: (اعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة اعثر عليه الباحث وأدى إليه الغوص، وليس من علم الخطابة الذي هو أحد العلوم المنطقية، فإن موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أوصدهم عنه، ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه، فقد خالف موضوعه هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة)[1].

وإذا كانت هذه وغيرها من الأسباب مما يتميز به ابن خلدون وأبحاثه في المقدمة، وهي لا شك جديرة بالاهتمام، فما الذي دفع بهذه إلى أن تتواري في أرفف المكتبات وخزائن الكتب؟.

ولست جازماً هنا بإجابة يقينية فتلك مسألة تصعب على الباحث المنهجي لما لها من صلة بنفسيات المهتمين بعصر ابن خلدون ومن جاء بعدهم، وكذلك لرجوعها إلى الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تجعل لكل عصر اهتماماً بعلم على حساب علوم، واتجاهاً لآراء على حساب أخرى وهذه طبيعة الحياة البشرية بوجه عام، ولكن الذي أحب الإشارة إليه هنا كإجابة ظنية على التساؤل الماضي هو أن مرجع ذلك يعود إلى:

1 ـ المنحى الجديد في البحث الذي اتجه إليه ابن خلدون والذي يخالف طبيعة الاهتمامات الفكرية في ذلك العصر.

2 ـ سعة المباحث والعلوم التي تناولها وشموليتها لعلوم مختلفة وآراء متنوعة قد يعجز الكثير من العلماء عن متابعتها، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار طبيعة التكوين التعليمي لمعظمهم.

---

(1) المقدمة/ تحق. د. علي الوافي/ دار النهضة/ مصر/ ج1 ص332.

3 ـ العجز عن متابعة هذه الآراء ولّد نوعاً من الحساسية التي أنتجت شكلين من أشكال التعامل مع التراث الخلدوني:

أحدهما تمثل في العداء والهجوم المباشر الذي ووجه به في حياته من علماء عصره كابن عرفة وابن حجر وغيرهم، وتمثل الثاني في هجر مؤلفاته وعدم إعطائها أهميتها الحقيقية.

وإذا كان هذا حال التراث الخلدوني في العالم العربي الإسلامي فما الذي دفع إلى الاهتمام به ـ وخاصة المقدمة ـ في القرون الأخيرة، وعلى أيدي المختصين من علماء الغرب بالذات، ونعني بهم المستشرقين؟ إذا كانت الإجابة عن تساؤلنا الماضي ظنية فإن الإجابة عن سؤالنا هذا ستكون أكثر يقينية؛ وذلك راجع إلى أمور متعددة أوضحنا جزءاً منها في بحثنا التمهيدي عن الاستشراق ودوافعه، ويتمثل هذا في أن الغرب لم يلتفت إلى التراث الإسلامي إلا لحاجته الخاصة به، التي تتمثل في محاولة كشف العقلية الشرقية عموماً والمسلمة على وجه الخصوص، وكشف طبيعة المجتمعات الإسلامية والعربية وما تتميز به من خصائص، وما تختلف به عن غيرها من الأمم، ويدخل في ذلك تتبع التراث الإسلامي في علوم متعددة أهمها علم الاجتماع وعلم التاريخ وعلم الجغرافيا وعلم الأنساب وعلم الصنائع والمعادن إلخ.. ذلك من أنواع التراث التي تفيد المجتمع الغربي في تعامله مع العالم العربي والإسلامي، وخاصة في تلك الفترة التي توجه إليها العالم الغربي لاستعمار العالم الإسلامي، وهنا يجد المستشرقون ضالتهم في التراث الخلدوني الذي لا شك في أنه يلبي الكثير من تلك الحاجات بما يكشفه من طبيعة البدو عرباً وعجماً، والتركيبة القَبَليّة وأثرها في استقرار الدول والسياسة الخ.. ذلك مما تناوله ابن خلدون في تآليفه عامة، وفي مقدمته بوجه خاص، وليس ذلك من قبيل الإنشاء وإنما هو أمر معترف به ومعلن من طرف هؤلاء الذين درسوا تراث ابن خلدون، حيث يعبر أحدهم عن ذلك فيقول: (أخذ

الاستشراق يتعلق بابن خلدون حيث بدأت محاولات استعمال القوة لاحتلال العالم الإسلامي، حيث احتاج الغرب لمعرفة المسلمين لمحاولة توجيه سلوكهم، وبالتالي قيادتهم، ولذلك مثل ابن خلدون مصدراً معرفياً مهماً)[1].

ويقول لاكوست: (وفي القرن العشرين، وخاصة في ما بين الحربين العالميتين، استرعت مؤلفات ابن خلدون بشكل واسع مؤلفين استخدموها خداعاً من أجل محاولة تبرير الموضوعات العرقية، وإرساء الإيديولوجيا الكولونيالية، ومنذ أن حُوِّر فكر ابن خلدون وزُوِّر بشكل فاضح أصبح ممتدحاً من قبل مداح الاستعمار)[2].

2 ـ الكتاب الثاني الذي تركه ابن خلدون، ويمثل قيمة علمية وأدبية وفنية رائعة، هو التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، وعلى الرغم من أنه لم يكن كتاباً مستقلاً بل كان يمثل الجزء الأخير من كتاب العبر، إلا أنه في الفترة الأخيرة مثل قيمة علمية دفعت الباحثين إلى الاهتمام به وإخراجه محققاً في طبعة مستقلة على يد المرحوم محمد بن تاويت الطنجي، وفي هذا الكتاب يبيّن ابن خلدون كل ما يتعلق بنسبه ونشأته ومشيخته، ومقامه بتونس ثم الأندلس، ثم رحيله إلى مصر وما يتصل بذلك من مناصب سياسية تقلدها ووظائف علمية زاولها، وما صاحب ذلك من متاعب وأهوال ومتع واستقرار، وما كان بينه وبين أصحابه من مراسلات الخ. . ذلك مما يوضح حياته بشكل تفصيلي لم يسبق إلى مثله ممن كتبوا سيرهم الذاتية سواء من معاصريه أو ممن تقدمه.

على أن الذي يعنينا في هذه السيرة هو تقييم الباحثين لها الذي اختلف من مؤلف إلى آخر، فبعضهم يعجب بهذه السيرة بدرجة كبيرة حتى إنه يرى فيها اختراعاً لفن جديد لم يسبق إلى مثله ابن خلدون ألا وهو ما يسمى بفن

---

(1) Bruce/ Ibn Khaldun and Islamic Ideology/ P. 5

(2) إيف لاكوست/ ابن خلدون/ تر. د/ ميشال سليمان/ ص13.

Auto Biographie أي فن صناعة السيرة الذاتية، وهو فن في مجمله لم يكن هو أول من ولجه، بل سبقه إلى ذلك ياقوت الحموي في (معجم الأدباء)، و(لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة في أخبار غرناطة) و(الحافظ ابن حجر في رفع الأصر عن قضاة مصر) و(السيوطي في حسن المحاضرة)[1].

ولكن ابن خلدون أعطى لهذا الفن بعداً جديداً جعله بحق صاحب فن جديد وقد تمثل هذا البعد في جانبين اثنين هما: التوسع الكبير في سرد جوانب السيرة كأنها مجموعة من الوثائق التاريخيه التي يعتمد عليها في رصد بعض الظواهر التاريخية، والجانب الثاني هو تلك الصراحة التي صاغ بها سيرته حتى أنه تعرض لكل شيء ذي قيمة سواء كان ذلك مدحاً أو قدحاً وبذلك تناول ابن خلدون أموراً قد لا يجرؤ غيره على ذكرها لما تدل عليه من خلق قد لا يعجب الكثير من الناس، وبذلك أصبحت هذه السيرة كما يقول أحد الباحثين شبيهة بما عرف بالاعترافات ومنها اعترافات الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) واعترفات جان جاك روسو في كتابه الاعترافات[2].

ومن الباحثين من لا يقدر لهذه الترجمة قيمتها، ولا يرى فيها إلا حديثاً عن النفس دفعته بواعث حب الشهرة والأنانية المفرطة، وهذا الأمر صرفه عن تقدير أي قيمة علمية لهذا المؤلف، ومن هؤلاء الدكتور طه حسين الذي يقول عنه: إن ابن خلدون (كانت تغلب فيه عاطفة الأثرة، وذلك واضح في ترجمته وضوحها في جميع مؤلفاته، ومن الممكن جداً أنه لم يكتب ترجمته إلا حباً في التحدث عن نفسه ورغبة في الظهور، وهو أول كاتب عربي خصص لتاريخ حياته كتاباً كاملاً)، ويقول ينبغي أن نلاحظ أن ابن خلدون في ترجمته لم يحتط كما فعل غيره من المؤلفين في أن يخفي عيوبه، فإنه لم يدع قط أنه حاول نيل السلطة خدمة المنفعة العامة، ولم يعن بأن

(1) د. علي وافي/ عبقريات ابن خلدون/ ص113 وما بعدها.
(2) المصدر السابق نفسه.

يحاول تبرير عمل خاطىء بتقديم دواع شريفة، بل يلوح لنا أنه لم يكن ذا شعور، لأنه أخطأ قط، ولهذين السببين ـ اغتباطه بالتحدث عن نفسه وصراحته في ذلك الحديث ـ نستطيع أن نعتبر أن ترجمته صورة مقاربة لسيرته وخلقه، نقول مقاربة فقط لأن اعتداده الجم بشخصه أعماه أحياناً عن تقدير نفسه فلم يصدر حكمه على جميع الأشياء بنزاهة[1].

على أن الذي يعنينا بين إعجاب أولئك وسخط هؤلاء هو أن الكتاب يعد ذا قيمة علمية كبيرة، وذلك بما احتواه من أخبار تاريخية، ومراسلات أدبية، وقطع شعرية، وتجارب شخصية، لا يمكن أبداً إلا أن تعبر عن عقلية جديرة بالاحترام والتقدير.

3 ـ المؤلف الثالث الذي تركه ابن خلدون هو ما سماه (لباب المحصل في أصول الدين) الذي كتبه في فترة مبكرة من حياته، وهو عبارة عن مختصر كتاب: (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين) لفخر الدين محمد بن عمر الرازي المعروف بابن الخطيب، وهو كتاب قام ابن خلدون باختصاره وتهذيب عباراته وترتيبها حتى تمكن من إخراجه بصورة علمية مفيدة، وفي ذلك يقول: (فاختصرته وهذبته وحذو ترتيبه رتبته وأضفت إليه ما أمكن من كلام الإمام الكبير نصر الدين الطوسي وقليلاً من بُنَيّات فكري، وعبرت عنهما بـ(ولقائل أن يقول وسميته لباب المحصل فجاء بحمد الله رائق اللفظ والمعنى مشيد القواعد والمبنى)[2].

هذا وقد نشر الكتاب الأول مرة بتحقيق الأب لوسيانو روبيرو[3] أستاذ الفلسفة في دير الأسكوريال الملكي كموضوع لرسالته عن الدكتوراه، وكان

(1) طه حسين/ فلسفه ابن خلدون الاجتماعية/ ص27.
(2) عبد الرحمن بدوي/ مؤلفات ابن خلدون/ الدار العربية للكتاب/ ص36.
(3) هو الأب الأوغسطيني Luciano Rubio أستاذ الفلسفة في دير الأسكوريال الملكي بإسبانيا.

نشره ضمن منشورات معهد مولاي الحسن في تطوان بالمغرب سنة 1952[1].

4 ـ كتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل وهو من كتب التصوف، حيث يثير فيه المؤلف قضايا ذات علاقة بهذا الفن، بل هي صلبه، وذلك من مثل اشتقاق كلمة تصوف وأنواعه ومدى استجابته لمعايير الإسلام، والأقوال في وحدة الوجود وموقفه من أصحاب الشطحات الصوفية، إلى غير ذلك من المسائل المفيدة في هذا الفن.

وهذا الكتاب أثيرت حول نسبته إلى ابن خلدون إشكاليات متعددة، ولكن الدكتور بدوي يؤكد في نهاية بحث طريف عن هذه المسألة أن الكتاب هو لابن خلدون وذلك حين يقول: (ولا جواب لنا على هذا التشكيك إلا أن نقرر أنه ـ إلى أن تظهر شواهد جديدة مضادة، وخصوصاً شواهد كتابية لا أدلة تحليلية ـ فإننا نؤكد أن كتاب شفاء السائل في تهذيب المسائل هو من تأليف أبي زيد عبد الرحمن ابن خلدون صاحب العبر وديوان المبتدأ والخبر[2]، ويؤكد هذه النسبة أيضاً الدكتور محمد عنان الذي يقول: (ومن الواضح مما ورد في صفحة عنوان الكتاب المذكور من نسبته إلى ابن خلدون، ومما وصف به مؤلف الكتاب من نعوت، بل وما يبدو في روح أسلوبه، وما يتخلله من عبارات خاصة في الوصف والتعبير أن هذا الكتاب هو من تأليف ابن خلدون نفسه)[3].

5 ـ بعد الكتب السابقة تتراجع المصادر في ذكر بقية آثار ابن خلدون وفي تقدير قيمتها، ويرجع ذلك كما أتصور إلى طبيعة هذه الآثار التي تتضمن جديداً يستحق الاهتمام كما هو الحال في المقدمة أو العبر أو السيرة الذاتية، فهي آثار علمية بسيطة كغيرها من الآثار المعتادة في

(1) عبد الرحمن بدوي/ مؤلفات ابن خلدون/ الدار العربية للكتاب ص38.
(2) المصدر السابق نفسه/ ص55.
(3) محمد عبد الله عنان/ ابن خلدون ص 171.

عصر ابن خلدون أو العصر الذي يليه ومن هذه الآثار يذكر الباحثون الكتب التالية:

أ ـ تلخيص بعض كتب ابن رشد كما أشار لذلك ابن الخطيب: (ولخص كثيراً من كتب ابن رشد)[1] ولم يشر ابن الخطيب إلى هذه الكتب التي من المرجح أن تكون لها علاقة بالفكر الفلسفي الذي أولاه ابن رشد أهمية كبيرة، ومن هذه الزاوية يأتي انفتاح ابن خلدون على الفكر الفلسفي، وخاصة ما تعلق منه بترجمة الفكر اليوناني كمؤلفات أرسطو وأفلاطون وغيرهم.

ب ـ تقييد مفيد في المنطق.

ج ـ كتاب في الحساب.

د ـ شرح رجز في أصول الفقه للسان الدين بن الخطيب، وهي التي سماها (الحلل المرقومة) وهو عبارة عن أرجوزة في ألف بيت لخص فيها ابن الخطيب كتاب أبي إسحاق الشيرازي في أصول الفقه.

هـ ـ شرح البردة الذي قال عنه ابن الخطيب إنه شرح البردة شرحاً بديعاً دلّ به على تفنن إدراكه وغزارة حفظه[2].

أشار أحد الباحثين إلى أن لابن خلدون كتاباً في الملل والنحل، وهي إشارة فريدة لم ترد عند من تصدر للحديث عن آثار ابن خلدون، كالدكتور عبد الرحمن بدوي في مؤلفات ابن خلدون، حيث يقول هذا الباحث في معرض حديثه عن نقد أفكار ابن خلدون: (ونوضح كذلك أن ما كتبه عن الإسلام يندرج في كتابه (الملل والنحل) أكثر منه في وضع الظاهرة الدينية موضعها الخاص في القوة المسيرة للمجتمعات[3].

---

(1) عبد الرحمن بدوي/ مؤلفات ابن خلدون/ ص39.

(2) المصدر السابق نفسه ص41.

(3) محمد أركون/ نحن وابن خلدون/ أعمال ندوة ابن خلدون/ منشورات كلية الآداب والعلوم والإنسانية/ الرباط 14 ـ 17 فبراير 1979/ ص32.

ولا أدري كيف يمكن تفسير هذه الإشارة الفريدة إذ لا مؤكد لها في بحث أركون نفسه، أقصد أنه لم يشر لها في ثبت المراجع، لأن البحث لم يتضمن مراجع مطلقاً، وليس في سياق كلامه ما يؤكد أيضاً أنه كتاب من كتب ابن خلدون، ولو أن اسم الكتاب قد وضع بين قوسين لقلت إنه ربما قصد بكتابه كتابته، ولكن القوسين يمنعان هذا المراد، وتبقى القضية في نظري مجرد إشارة لا مرجح لها في كتابات ابن خلدون نفسه وفي مقدمة ذلك سيرته الذاتية، ولا في من أخبر عن أعمال ابن خلدون وفي مقدمتهم صديقه لسان الدين بن الخطيب، ولولا أن البحث العلمي يقتضي الاهتمام بمثل هذه الأشياء لما تعرضت لهذه القضية لانعدام الشواهد المثبتة لها.

6 ـ ومن الآثار المهمة التي تذكرها المصادر لابن خلدون كتاب مفيد في الجغرافيا كتبه بطلب من تيمورلنك، يتحدث فيه عن بلاد المغرب من جميع الجوانب وخاصة منها الجغرافية والاجتماعية، ويصف ابن خلدون نفسه هذا الكتاب بقوله بعد أن يصف إجابته الأولى لتيمورلنك عن سؤاله عن المغرب: (لا يقنعني هذا وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها، أقاصيها ودانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره حتى كأني شاهده، فقلت (أي ابن خلدون): يحصل ذلك بسعادتك، وكتبت له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك وأوعبت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون قدر ثنتي عشرة من الكراريس المنصفة القطع)[1].
غير أن هذا الكتاب المهم لم يصل إلينا، وذلك لكونه نسخة فريدة أهداها المؤلف لهذا الأمير الذي تثبت المصادر أنه ترجمها إلى لغته أو أنه نسخ منها نسخاً أُخرى، وقد علل الدكتور بدوي عدم كتابة ابن خلدون نسخة لنفسه بأنه يحتمل أحد أمرين: إما لأن المقدمة تضمنت هذه المباحث ولا داعي لإعادتها، وإما لأن الكتاب تضمن حديثاً

(1) التعريف/ ابن خلدون/ ص411.

خطيراً قد يعرض أمن المنطقة للخطر حين استخدام تيمور لهذه المعلومات، وهو ما يعرض ابن خلدون نفسه للاتهام بالخيانة، وكلا التعليلين مقبول ومنطقي كما أتصور[1].

هذه هي بصورة إجمالية ومختصرة أهم آثار ابن خلدون التي رصدها الباحثون وتتبعوها بصورة واسعة وفي كتب مستقلة، وقد عرضت فقط إلى الجزء الذي تتطلبه طبيعة الدراسة، وتركت البقية لمن أراد الاستزادة أن يرجع إليه في مظانه التي أشرت إلى بعضها في ثبت المراجع بالهامش.

العلوم التي تعامل معها ابن خلدون

إنني أتصور أن ابن خلدون قد ظلم كثيراً حين تم تقديمه على أنه عالم اجتماع ومؤلف في التاريخ، وهما الجانبان اللذان إذا ذكرت هذه الشخصية فإن القصد يتجه تلقائياً إليهما، ومع الاحتفاء بهذين الفرعين من العلوم اختفى كثير من الجهد والإبداع الذي تألق به ابن خلدون في فروع معرفية أخرى، وقليل من الدراسات المتأنية والمنهجية هي تلك التي اهتمت بتراث هذه الشخصية من جميع جوانبها المختلفة، وكان من نتيجة هذه الدراسات أن يتساءل البعض: في أي فن يبرز الإبداع الخلدوني؟ وتحت أي تخصص يمكن أن يصنف؟ ومن هؤلاء مثلاً لابيكا الذي يقول: (إلى أي صنف من العلماء ينتسب ابن خلدون؟ ذاك سؤال أولى يمكن أن تطارحه القارىء المعاصر وليس الغربي فقط إزاء ضخامة كتاب العبر، ذلك أنه وإن كان لا يمكن أن ننكر على ابن خلدون أصالته كمؤرخ، يبقى من المناسب تحديد طبيعة موقفه في المنهج الذي يشتغل به، وفي الموضوع الذي يؤسس المنهج، من أجل أن نحيط بوحدة الميادين المختلفة، تلك الوحدة التي

(1) د. عبد الرحمن بدوي/ مؤلفات ابن خلدون/ ص288.

يوحي بها موقفه[1] وهذه القضية ـ كما أتصور ـ جديرة بالتوقف والاهتمام، فهل الرجل فيلسوف؟ أو هو مؤرخ؟ أو اجتماعي؟ أو فقيه أو محدث أو ماذا؟ والجواب كما يبدو لي أنه ضليع في كل العلوم التي ذكرنا، وله فيها إسهامات كبيرة لا تنكر ولكن هذه الإسهامات تختلف من فرع إلى آخر، فإسهامه في التاريخ قوي وذو منهج تجديدي بدا فيه جهده الواضح للخروج من النسق الذي سار عليه المؤرخون قبله، ومن أجل ذلك وحده كان اهتمام الباحثين بإبداعه في هذا الجانب ولو كان ذلك على حساب غيره من الجوانب الأُخرى، وإسهامه في علم الاجتماع متميز وذو دلالة اجتهادية، فهو صاحب نظريات جديدة لم يسبق إليها في مسائل العمران البشري والعصبية ودلالاتها الاجتماعية، وهذا اتجاه جديد وجد صدى كبيراً لدى الباحثين الذين انصبت دراساتهم على تحليل نظرياته ومحاولة الاستفادة منها على مختلف الأصعدة، وكان هذا الإهتمام في هذا الجانب على حساب بقية الجوانب الأخرى في هذه الشخصية المبدعة.

لذلك وحده ـ كما أتصور ـ كان الاهتمام بهذين الفرعين من العلوم التي تعامل معها، والسبب المنهج الذي اتبعه في علم التاريخ، وجدة النظريات التي تضمنتها مقدمته، وهذين السببين هما اللذان قاما بدور كبير في الإهمال الذي لقيه تراث ابن خلدون في عصره الذي غلب عليه التقليد واتجه إلى العلوم الدينية بفروعها المختلفة، ولذا كانت مخالفته لهذا النسق كفيلة بإهمال تراثه لفترة زمنية طويلة، كما أن هذين السببين هما اللذان أديا إلى اهتمام الباحثين بتراثه والتقليب بين صفحاته المختلفة كل بحسب هواه ووفق أهدافه، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من هذا في الصفحات الماضية.

أما بقية العلوم الأُخرى فقد كان فيها مؤلفنا مبدعاً، ولكنه لم يخرج فيها

---

(1) جورج لابيكا/ السياسة والدين عند ابن خلدون/ ترد، موسى وهبه وآخر/ ص25. وانظر أيضاً:
. IBN KHILDUN AND ISLAMIC IDEOLGY L. BRUCE

عن النسق المعروف في عصره من اختصار المطولات وشرح ولَمّ شتات المتفرق، إلى غير ذلك مما هو معروف في مناحي التأليف في ذلك العصر وما شابهه من العصور الأُخرى، وإذا فتشنا عن تراث الرجل فإننا نستطيع أن نقول إنه فيلسوف من باب أنه مطلع وعالم بالفلسفة، لا من باب أنه مؤلف مبدع فيها على الرغم من أننا ذكرنا من مؤلفاته كتاباً في المنطق، وهكذا الحال في علم أصول الدين ومختصره المهم في هذا الفن، أما بقية العلوم الأُخرى فإن مقدمته الشهيرة هي التي تنبئنا عن ضلوعه فيها، ومن ذلك مثلاً أنه كان بصيراً بعلوم الحديث لدرجة أنه عين أستاذاً لهذا الفرع حين مقامه بمصر، وكان اهتمامه بهذا العلم واضحاً من خلال ما كتبه في مقدمته حول هذا الفن من آراء قيمة وانتقادات علمية تدل على بصيرة وعظيم اطلاع، ويلحق بذلك فصل عقده عن المهدي المنتظر وما ورد في ذلك من أحاديث تولاه ابن خلدون بالنقد العلمي المنهجي، مما جعل بعض الباحثين يصف ذلك الفصل بأنه يتسم بالطرافة والأصالة وقوة الحجة، ويدل على رسوخه في هذا الميدان[1].

ومثل هذا الرأي يقال في ضلوعه في علوم الفقه وخاصة ما تعلق منه بالمذهب المالكي الذي تعرض له من خلال فصلين من فصول المقدمة، وأشار فيهما إلى هذا المذهب وانتشاره وأهم ما كتب فيه، ولأهم أعلامه، وكان ذلك بشكل دل على غزارة علم وسعة اطلاع لا نظير لها بين معاصريه، الأمر الذي أهله لأن يتولى أستاذية الفقه المالكي حين دفعت به الظروف الحياتية للمقام بمصر، وليس ذلك فحسب، بل إن غزارة علمه في هذا الفرع هي التي أهلته لأن يتولى منصب قاضي قضاة المالكية في مصر ست مرات على الرغم من وجود الكثير من أعلام هذا المذهب في مصر في ذلك الوقت[2].

---

(1) د. علي وافي/ عبقريات ابن خلدون/ ص231.

(2) المصدر السابق نفسه/ ص134 وما بعدها.

ويطول بنا الحديث لو أننا أشرنا إلى كل فرع على حدة، ففروع المعرفة كثيرة ونصيب ابن خلدون في ولوج الكثير منها واضح، ويمكن الاكتفاء بالإشارة إلى ذلك البحث الظريف الذي كتبه الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه (عبقريات ابن خلدون) وفي تحقيقه الرائع للمقدمة، يضاف إلى ذلك أن اطلاعاً متأنياً على ما تضمنته المقدمة كفيل بأن يوضح أي نوع من العلماء كان ابن خلدون، إنه لاريب كان من ذوي الطابع الموسوعي الذي تعلم الكثير وحفظ الكثير وأنتج الكثير أيضاً إذا قيمنا تراثه بعدد الأفكار التي تعرض لها لا بعدد الكتب التي ألفها، ومن هنا تبدو قيمة التراث الخلدوني وعلة الاهتمام الواسع به، لأن المقدمة وحدها قد تناولت من الأفكار ما لم يتمكن غيره من علمه، ولا نغالي إذا قلنا لا في من عاصره ولا في من جاء بعده، ومن هنا كانت المقدمة عبارة عن دائرة معارف بمصطلحات العصر الحديث، وإلى مثل هذا يشير أحد الباحثين حين يقول: (وأما من وجهة المباحث الاستطرادية فإن المقدمة بمثابة موسوعة ثمينة جداً، وهي تجمع كمية كبيرة من المعلومات القيمة عن الجغرافية والتاريخ ورسوم الحضارة وأصناف العلوم وأحوال الصنائع، وأصول التعلم، وعن أهم المؤلفات العلمية والأدبية والآراء السياسية والدينية والفلسفية)[1].

وأخيراً أقول: إننا أمام تراث ضخم تناول فيه مؤلفه علوماً مختلفة؛ كالفلاحة والبناء والتجارة والطب والخط والكتابة وعلوم القرآن ورسم المصحف والتفسير والحديث والفقه والفرائض وأصول الفقه والجدل والخلافيات والتوحيد والتصوف والعلوم اللغوية والرياضة والطبيعة والمنطق والفلسفة والإلهيات والتاريخ والاجتماع والجغرافيا، إلى غير ذلك مما هو واضح في آثاره المتعددة، وإن كان الباحثون قد ركزوا على جزء من تراثه وتركوا الباقي فإن ذلك لا يدل على قلة علمه في هذه العلوم الأُخرى، وإنما

(1) ساطع الحصري/ دراسات عن مقدمة ابن خلدون/ مكتبة الخانجي/ بيروت/ ص114/ . 1967.

يرجع إلى بعض الظروف التي وضحنا بعضها فيما سبق، ونشير إلى بعضها الآخر هنا، وعلى رأسها تلك التبعية المقيتة التي عليها الفكر العربي في مرحلته الراهنة، التي جعلت منه أسير الفكر الغربي وما يركز عليه من آثار وما يتجه إليه من جوانب فلقد سجل الباحثون العرب تبعية فكرية لباحثي الغرب في جوانب الفكر الخلدوني التي اهتموا بها، ولذلك سقطت من حسابهم إسهاماته في مجالات أُخرى ورسوخ قدمه في علوم متعددة، وأدى ذلك أيضاً إلى نسيان أُسسه الفكرية التي تنطلق من الكتاب والسنة ومن تربيته الإسلامية وتلمذته على الكثير من الفقهاء والقراء والمحدثين، وتأسيساً على ذلك كله أقول: إن ابن خلدون هو إمام ومجدد في علمي التاريخ والاجتماع، وهو إلى جانب ذلك عالم وذو اطلاع كبير على كل فنون المعرفة الأُخرى النظرية منها والتقنية، والمقدمة خير شاهد ودليل.

منهجية البحث الخلدوني

ليس هناك من شك في أن ابن خلدون كان عالماً عربياً مبدعاً بدرجة كبيرة جعلت من أفكاره ونظرته العلمية قبلة للباحثين والمفكرين المعاصرين دون سواهم من علماء عصره، ويكمن السر ـ في نظري لذلك ـ في المنهجية العلمية التي اتبعها وفي أبحاثه في كمية المعلومات ونوعيتها التي قدمها، فكثير من العلماء قبله وبعده كان قد قدم الكثير من الآراء التي اتبعت منهجاً مخالفاً لما كان سائداً في عصره من مناهج، ولذا قاده هذا المنهج إلى التميز عن معاصريه وسابقيه، وأدى به إلى التوصل إلى آراء ونظريات فريدة استحقت أن ينكب عليها الباحثون من كل فن محللين وناقدين ومعجبين.

لقد كانت سمة المنهج العلمي السائد في عصر ابن خلدون وما سبقه من عصور هي التقليد والنقل، ومحاولة الاعتماد على الإكثار من الروايات والشواهد ـ وخاصة في المجال التاريخي ـ وقل ما وجد ناقد متعمق أو فاحص متأمل، وخاصة إذا ما تعلق الأمر بالأمور التي أحيطت بطابع القداسة،

لما لها من صلة بالمعتقدات الدينية، ولذلك كله فإنك قد تطالع كتاباً معيناً يحدثك عن فترة تاريخية معينة، فيغنيك عن مطالعة عشرات الكتب الأُخرى في نفس المجال التي قد تحدثك عن تلك الفترة بنفس الوقائع ونفس الأسلوب وأحياناً بنفس العبارات، وهذا في العموم لا يعد عيباً بل منهج من المناهج التي وجدت في بعض العصور وكان مناسبة له إذ لكل عصر مقاييسه العلمية ومرتكزاته الفكرية.

لذلك كله مثل ابن خلدون محطة انتقال مهمة في تاريخ الفكر الإسلامي، وذلك بما تناوله من قضايا وبما أشار إليه من أُسس منهجية وبما توصل إليه من نتائج وآراء ونظريات، وقد لا نهتم كثيراً بنوعية القضايا التي تعامل معها، فهذه لها علاقة بظروف العصر ومستجداته وأحواله التي قد تفرض الالتجاء إلى معالجة قضايا على حساب أُخرى لدوافع آنية مختلفة، وقد لا نهتم أيضاً بحجم النتائج والنظريات التي توصل إليها ولا بخطورتها، فتلك مرتبطة أساساً بالفرضيات التي انطلق منها، والتي يسهل نقدها وبيان بطلانها وصوابها. ولكن المهم حقاً هو ما أشار إليه من أُسس منهجية قد يكون لها كبير الأثر في تحويل مجريات الأفكار من مسار إلى آخر، وتلك نقلة نكتشف صداها في كثير من الباحثين بعده وفي العديد من المؤلفات التي أعقبته.

من أول أسطر المقدمة نكتشف عناصر المنهجية الخلدونية التي يأتي في مقدمتها قيمته العلمية والمعرفية، فهو يشير إلى أن للعلم ظاهراً وباطناً، فظاهره للعامة والمحققين، ولذا فإن العلمية المعرفية هي تلك التي تنفذ إلى بواطن الأمور وتتحقق من المقاصد والوقائع، فهو يقول عن علم التاريخ: (إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذ غصها الاحتفال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق وعلم

بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق[1].

ومن ذلك نكتشف أنه يؤكد قيمة المعرفة في كونها عملية عقلية تؤدي إلى اكتشاف حقيقة ما، وليست هي مجرد رواية تنقل وقصة تلاك، وهو بذلك يشير إلى حقيقة التأليف العلمي في المجال التاريخي في عصره وفي العصور المتقدمة عليه، التي جعلت من هذا الفن مجرد روايات تتكدس لتفتح للملفقين والوضاعين باباً يشوهون به الحقيقة العلمية والخبر التاريخي، وفي ذلك يقول: «وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا فضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل»[2].

وثاني القواعد المنهجية التي نرصدها عند ابن خلدون هي ضرورة النقد المنطلق من قواعد علمية ثابتة، وقد طبق هذه القاعدة على علم التاريخ حيث أشار إلى أن الكثير من المؤرخين ينقلون أخباراً يسرفون في وصفها وتعظيمها، مما أدى إلى خروجها عن مقتضيات المنطق العقلي السليم، وقد استعرض أمثلة متعددة من القضايا التي انتقد صحتها مستنداً على أُسس جغرافية أو اجتماعية أو اقتصادية، وكانت أمثلته موزعة على فترات تاريخية متباعدة ابتدأها بعهد موسى عليه السلام، وانتهى بها إلى الإمام المهدي صاحب دولة الموحدين. والذي يهمنا من ذلك كله هو ما انتهى إليه من تقرير

(1) المقدمة/ ج1/ ص282/ تحق. د. علي عبد الواحد وافي.

(2) المصدر السابق نفسه.

القاعدة العلمية في نقد الأخبار التاريخية وما يتطلبه هذا النقد من وسائل تحدث عنها بقوله: (فإذا يحتاج هذا الفن إلى العلم بقواعد الساسة وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أُصول الدول والملل ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث، واقفاً على أُصول كل خبر وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأُصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان، وإلا زيفه واستغنى عنه)[1].

ومن القواعد المنهجية التي أشار إليها ابن خلدون وتوقف عندها ما أسماه بتبدل الظروف والأحوال، وهذه قاعدة ـ ولا شك ـ مهمة تأتي في رأس الأُسس المنهجية للبحث العلمي الرصين، فتبدل الظروف والأحوال كفيل بتبدل المقاييس في التعامل، وتبدل حتى المصطلحات والألفاظ، ومن ثم فإن قياس حالة بحالة أُخرى تبتعد عنها مكانياً وزمانياً هو من الأمور التي تصيب المنهج العلمي بالخلل والاضطراب، وقد سبق أن أشرت إلى أن أحد عيوب المنهج الاستشراقي في التعامل مع العلوم الإسلامية هو إهماله لهذه القاعدة المنهجية، حيث يقيس الغربيون المجتمع النبوي بمجتمعاتهم المعاصرة ويبنون أحكامهم على ذلك، ولذا تراهم يتحدثون عن فكرة التصييف عند الرسول ﷺ وفكرة البنوك عند المجتمع النبوي، وهذه أدت إلى اضطراب الأحكام وفساد الرؤية فالزمن غير الزمن والحالة غير الحالة والبشر، غير البشر ومن هنا فإن أي قياس هذه مواصفاته سيكون باطلاً وغير علمي، ولهذا ترانا اليوم نقدر هذه الإشارة التي ركّز عليها ابن خلدون في منهجه حين

(1) المقدمة/ ج1/ ص320.

قال: (ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء، إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول: سنة الله التي قد خلت في عباده)[1].

ونشير أيضاً إلى أساس آخر من أُسس المنهج الخلدوني في البحث، وهو ما أسماه بعض الباحثين بالعامل النفسي، ويقصد به إبعاد التأثيرات النفسية أياً كان نوعها عن التعامل مع الأخبار والروايات سرداً أو تحليلاً، وهذه سمة ـ ولا شك ـ مؤثرة في المنهج العلمي، ويصعب على الكثيرين التخلص منها، وقد عزا ابن خلدون انحرافات المؤرخين وتشويه بعض الأخبار التاريخية إليها، وفي ذلك يقول معدداً جوانب التأثيرات النفسية: (ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته، وله أسباب تقتضيه، فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله، ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح، ومنها الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب، ومنها توهم الصدق وهو كثير وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين، ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع

(1) المصدر السابق نفسه.

لأجل ما يدخلها من التلبيس والتصنيع، فينقلها المخبر كما رآها وهي التصنيع على غير الحق في نفسه، ومنها تقرب الناس ـ في الأكثر ـ لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة)[1].

ومن الأمور المنهجية الجدية التي قدمها ابن خلدون فصله بين نوعين من الأخبار: الشرعية منها وأخبار الوقائع والأحوال. وقد أكد أن لكل طريقته في القبول، ومن هذا المنطلق لم يعترف بمنهج الجرح والتعديل عند المحدثين كمعيار للحكم على الوقائع والروايات التاريخية بإطلاق، فمنهج الجرح والتعديل ينبغي أن يعمل ويعتبر فيما له علاقة بالأخبار الشرعية التي يطلب التأكد فيها من صحة الناقل لا من المنقول، باعتباره أمراً تشريعياً مقدساً، أما الأخبار عن الوقائع والأحوال فهي من قبيل الأمور التي تخضع للمطابقة للواقع والاختبار إما بالقياس أو بالاستقراء أو بالتجريب الخ. ذلك وإنما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية، لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها متى حصل الظن بصدقها، وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط، وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة، فلذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه، وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه؛ إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة[2].

بهذه النظرة استطاع ابن خلدون ـ كما يرى أحد الباحثين ـ أن يحقق خطوة هامة على مستوى تنظير التاريخ العربي بفصله المنهجي لعلم التاريخ عن العلوم الدينية فصلاً على مستوى النظرية، وذلك برفضه للإسناد منهجاً

(1) المقدمة/ ج1 ص328/ وانظر أيضاً: د. علي امليل/ الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون/ معهد الإنماء العربي/ بيروت/ ص28.
(2) المقدمة/ ج1/ ص331.

لهذا العلم، إن هذا الفصل على مستوى النظرية إنجاز جديد لم يسبق إليه صاحب المقدمة، فابن خلدون وهو يخرج علم التاريخ من ميدان العلوم الدينية إنما ينفصل عن تقليد طويل جرى عليه المؤرخون[1].

إن آخر ما يمكن رصده في منهج ابن خلدون هو اهتمامه بالبرهنة والاستدلال الذي هو ـ كما نعرف ـ أساس البحث العلمي الرصين، والبرهنة عنده هي التي تعتمد على الملاحظة والاستقراء والتجريب، ولذا فإن أبحاثه عن تاريخ المغرب عرباً وبربراً تعتبر من أحسن ما كُتب في موضوعه، لأنه اعتمد في رصدها على المشاهدة والمعايشة، وهكذا هو في سائر آرائه يبدو معتمداً على ملاحظة الحوادث وتأليف أجزائها واختبارها للوصول منها إلى حكم أو رأي[2]، وفي ذلك يقول: (فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أنْ ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لا يعتد به، ولا يمكن أن يعرض له، وإذا فعلنا ذلك كان لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه، وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه)[3].

وبهذه الأُسس المنهجية الجديدة ـ في وقتها كما نعتقد ـ حدد ابن خلدون منهجه في البحث والتأليف، وأخرج لنا مؤلفاته المختلفة المشهور منها وغير المشهور، وصارت هذه المؤلفات ـ وعلى الأخص المقدمة ـ

---

(1) د. علي أمليل/ الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون/ معهد الإنماء العربي/ بيروت/ ص28/ وانظر أيضاً: عزيز العظمة/ ابن خلدون وتاريخيه/ دار الطليعة/ بيروت/ ص190/ وأيضاً طه حسين/ فلسفة ابن خلدون الاجتماعية/ ص42.

(2) انظر في ذلك: أ ـ غاستون بوتول/ ابن خلدون/ ص120 ب ـ إيف لاكوست/ ابن خلدون/ ص202.

(3) المقدمة/ ج1/ ص331.

منهل الباحثين والعلماء في العصر الحديث، لأنه بهذه الطريقة في رصد الحوادث وتتبعها وفي الحكم على القضايا ونقدها استطاع أن يوجد من المفاهيم والحقائق ما عده الباحثون من المبتكرات التي لم يسبق إليها، بل إن ابن خلدون نفسه لم يخف اعترافه بهذا الإبداع الجديد الذي توصل إليه حيث يقول: (واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص)[1].

على أن الإبداع الذي يعترف به المؤلف، أو الذي يحسبه له الباحثون ينبغي أن يفهم على أنه في إطار العقيدة الإسلامية روحاً ومنهجاً، فإبداعه في المنهج وإبداعه في النتائج إنما كان بسبب التزامه الديني وورعه وتقواه وعمق فهمه للنصوص القطعية منها والظنية، وهو أمر يؤكده كثير من الباحثين الذي درسوا ابن خلدون، ونذكر منهم ـ على سبيل المثال ـ غاستون بوتول الذي يقول: (وابن خلدون في جميع أثره يظهر إيماناً دينياً تاماً، فلا يناقش حول أي اعتقاد مطلقاً، ولا يبدي أي ميل إلى ما بعد الطبيعة، ولا إلى المحكمات الكلامية)[2].

هذا هو عبد الرحمن بن خلدون المفكر العربي المسلم كما تصورته من خلال ما كتب حوله، وكما استطعت أن ألخص حياته وأعماله ومنهجه بشكل موجز، لاعتقادي أنه أمر تمهيدي للبحث وليس رئيساً فيه؛ لأن الرئيس ـ كما أتصوره ـ هو كيف يفهم الغرب ـ الإنجليز النموذج ـ هذه الشخصية وكيف قيموها وتعاملوا مع مبتكراتها، وهو ما سيشتمل عليه الباب التالي بإذنه تعالى.

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) غاستون باتول/ ابن خلدون/ ص121.